الفصل الثانى

النبات والفلاحة والرى عند عرب الجاهلية

ليس من اليسير على الباحث أن ينقب عن الحياة الزراعية فى العالم العربى فى العصور القديمة فى مثل هذا المجال الضيق ، ذلك أن البلاد العربية تتنوع فيها البيئات وتتباين نظرا لامتدادها الواسع عبر قارتى آسيا وأفريقية ، فمن مناطق صحراوية تندر فيها الزراعة ، إلى وديان أنهار لا حياة لها إلا بالزراعة فيها ، ومن مناطق تقف عند حدود الخطوات الأولى للبشرية عبر مسيرة تقدمها المعرفى والتقنى ، إلى مناطق عرفت الحضارة فى أرقى مستوياتها وبلغت ذروة المعرفة والتقنية بمعايير زمانها . ولعل هذا هو ما يدفعنا إلى أن نحدد مجال البحث فى الجزء الحالى بالمساحة الجغرافية لشبه الجزيرة العربية دون بقية المناطق خاصة فى العراق ومصر والشام والمغرب ، حيث أننا عندما نتحدث عادة عن العرب قبل الإسلام ، ينصرف الذهن فى أغلب الأحوال إلى الجزيرة العربية ، فهى ، " مخزن " العروبة إن صح هذا التعبير ومعينها الذى انطلق منه العرب بعد ظهور الإسلام إلى سائر المناطق الأخرى فعربتها ، صحيح أن هناك أبحاثا تؤكد عروبة المناطق الأخرى المجاورة منذ عصور قديمة ، ولكننا لسنا هنا فى موضع يسمح لنا بمناقشة هذه القضية ، ومن ثم فان الأصوب أن نحدد أنفسنا بالأرض التى لا خلاف عليها لا قديما ولا حديثاً .

طبيعة البيئة العربية :

فى الجنوب الغربى من آسيا ، وبين البحر الأحمر والخليج العربى وبحر الهند ، تقع بلاد العرب ، التى قسمت فى عصر الجاهلية إلى خمسة أقسام جغرافية : تهامة ، ونجد ، والحجاز ، والعروض ، واليمن [١] .

والشــمس الساطعة تلفح أديمها ، وتهب عليها – أحيانا – رياح السموم ، فتكاد من وقدتها وشدة حرارتها تذيب دماغ الضب ، وتلهب الرمال ، وتصهر الصخور ٠

وكثـبانها مكســوة بشجر الغضا والسدر والأثل ، وهى أشجار تكون فى أغلب الأحـيان ملـتوية معوجــة ، وممـا ينبت على ثراها بسقيا أمطارها الشيح والقيصوم والحسك والسعدان .

واليمن حالها اختلف كثيرا عن بقية شبه الجزيرة ، فقد شاء الله لها منذ عصرها القديـم السـعيد ، أن تـتدفق مـياه الأمطار على جبالها ، وتجوس الأنهار والجداول المــترعة خلالهــا ، وتزدهر فيها البساتين ، وتمرع الحقول المخصبة ، مما كفل لها المجـد والشــهرة والمدنــية التى كانت مؤتلفة مشهورة ،والمكانة التى كانت عظيمة مرموقة (٢) .

والــتاريخ يشــهد لليمــن بمجدهــا الغابر ، وحضارتها العريقة التى قامت بين شــموس المجــوس ونــيرانهم ،وكواكب الوثنيين وأصنامهم ، وفيها تعددت الهياكل ، وتنوعــت المعــابد ، بكهنتها وأسرارها ، ولديها عزت الآمال ، وتحطمت المطامع ، ووهنــت الأمانى ، فكانت ملكة سبأ ، وكان حمير ، وتبع وقحطان ، وقامت الحصون والقلاع والقصور وسدود الماء ، ونشأ فيها العلماء والشعراء ، ونوابغ فن البناء .

والزائــر لــبلدان الجزيــرة العربية فى الوقت الحاضر يستطيع أن يلمس كيف اســتطاع الإنسان أن يقهر ظروفها الطبيعية ويطوعها لإرادته بحيث أصبحت لا تشكل عقــبة تعــوق الــناس عن إقامة مجتمعات بشرية منظمة تسير فيها الحياة سيرا نشطا وتعــج بــالعمل الــدءوب والحركة المستمرة ... وما هكذا كان الأمر من قبل !! فلقد بلغــت قســوة هــذه الظروف فى العصور القديمة إلى الدرجة التى ما نظن أن شعوبا أخــرى عانت منها مثلما عانى الشعب العربى . لقد حملت فى طياتها كل ما من شأنه أن يــبعد الإنســان عن هذه الأرض ، بل يبعد كل ذى حياة إلا إذا كان على قدر عال من الصلابة والمقدرة التى تمكنه من تجاوز القسوة الواضحة .

لقـد سـاد الجزيرة الجو الحار على العموم ، بيد أنه كان مشبعا بالرطوبة فى المناطق الساحلية ، جافا فى المناطق الداخلية . ومن المعروف أن الجو الحار الرطب يغيـث الإنسـان بمطر قد ينهمر انهمارا ، وقد ينزل بمواسم ، ولكن حرارته الشديدة المتشـبعة بالـرطوبة تهد الجسم وتعطيه رخاوة فى بدنه وفى عقله ، تجعله يميل إلى الخمـول والكسـل والدعة وإلى الاسترسال فى العواطف ، ثم تحرمه من نشاط إنسان الجـو البارد ، وتجعله دونه فى العمل وفى هذه الحياة والضرب فى هذه الأرض وفى اسـتغلال التربة وما فيها وما عليها . وأما الجو الحار الجاف ، فيحرم سكانه من نعمة الغيث فى الغالب ويلبس سطح الأرض أكسية غبراء من رمال تذروها الرياح . ثم هو يجعـل مـن الصـعب علـى الإنسان أو الحيوان أن يجد قوته فى هذه القفار الواسعة المغـبرة ، أو أن يعـيش فـيها عيشة مستقرة دائمة ، فى مجتمعات كثيفة كمجتمعات الأجواء الباردة أو المعتدلة أو الحارة الرطبة ، فاضطر إلى التنقل والارتحال بحثا عن الكـلأ والمـال ، اللهم إلا فى مواطن الماء ، وهى عزيزة ثمينة لأنها فى أرض غلب علـى طـبعها الجفاف ، فتصير هذه المواطن القليلة هدفا لهجمات العطاشى عليها فى سـنى القحط وانحباس المطر ، وأيام الضيق والشدة لسد الرمق وللمحافظة على ما فى الجسـم الذابـل النحيل من عروق لتعينه على البقاء حتى يفنى بطعنه أو بموت حتف أنفه [٣] .

ونجد فى شعر شعراء الحجاز وصف كثير للفقر والجوع ، وهم يتحدثون فيه عن مـيلهم إلى التصعلك ، وإغاراتهم المستمرة على الأسواق والمناطق الخصبة ، والقبائل الغنـية ، لعلهم يظفرون ببعض الغنائم والأسلاب التى يقيمون بها آوادهم ، ويمسكون بها الحياة على أهلهم وأولادهم [٤] .

وكانت القبائل فى سهول نجد وبواديها تتباين فى الغنى والفقر ، بل إن أبناء القبيلة الواحدة كان فيهم الثرى المنعم والمحتاج المعدم ، وقد أرقت هذه الأوضاع الاقتصادية والأحـوال الاجتماعـية المتناقضـة بعض أبناء القبائل النجدية ، لأنهم استشعروا وقع الفقـر على الناس ، وأثره فى النفوس ، وأحسوا حاجة الفقراء والمعدمين وآلام الجياع

والمحرومين فرفضوها وتمردوا عليها وحاولوا إصلاحها بالقوة إذ تصعلكوا واتخذوا الغزو والسلب وسيلة لبلوغ هذه الغاية (٥) .

وقد كثر الصعاليك فى قبيلة هذيل كثرة شديدة ، فقد ذكر الأصمعى أنه كان فيها أربعون شاعرا صعلوكا ، كلهم كان يعدو على رجله ، ومن أشهرهم الأعلم وأبو كبير وأبو خراش ، وهو يقول مصورا سوء حالته وأنفته وعفته (٦) :

وإنى لأثوى الجوع حتى يملنى ... فيذهب لم يدنس ثيابى ولا جرمى (*)

وأغتبق الماء القراح فأنتهى ... إذا الزاد أمسى للمُزلج ذا طعم (**)

أرد شجاع البطن قد تعلمينه ... وأوثر غيرى من عيالك بالطعم (***)

مخافة أن أحيا برغم وذلة ... وللموت خير من حياة على رغم (****)

(*) أثوى الجوع : أطيل حبسه ، والجرم : الجسد

(**) أغتبق : اشرب عشاء ، القراح : الماء الصافى

(***) شجاع البطن : شديد الجوع

(****) الرغم : الهوان

وكان عروة بن الورد العبسى أشهر شعراء الجاهلية الذين استوعبوا مفاسد الأوضاع الاقتصادية وتمثلوا مساوئ الأحوال الاجتماعية فى سهول نجد وبواديها فتصعلك وثار على أغنياء قبيلته ثورة عارمة ، وجعل همه فى حياته أن يغير عليهم وينهبهم ليوفر للفقراء والضعفاء من قبيلته بعض العيش الذى يقيم أودهم .

وتدل البحوث والدراسات التى قام بها السياح والعلماء عن بلاد العرب ، على أن تغيرا كبيرا طرأ على جوها ، وأن هذا الجفاف الذى عهدناه فى هذه البلاد لم يكن على هذا النحو الذى كانت عليه فى عصور قديمة ، وأن ذلك الجفاف أثر تأثيرا كبيرا فى شبه جزيرة العرب فجعل أكثر بقاعها صحارى جرداء ، كما أثر فى حالة

سكانها ، فقاوم نشوء المجتمعات الكبرى وأثر تأثيرا خطيرا فى تاريخ الأمة العربية وفى حدوث الهجران [٧] .

ويرى العلماء أن الرياح الغربية البادرة المشبعة بالرطوبة كانت تصل إلى أرض شبه الجزيرة العربية وتنزل المطر عليها . وأن هذه البقاع الصحراوية كانت خضراء آهلة بالسكان ، فمثلا المنطقة الواقعة بين ، العلا " و " معان " من المناطق الصحراوية الآن ، كانت من مناطق الغابات المكتظة بالأشجار المملوءة بالحيوانات المفترسة [٨] ، وكانت جبال الطائف تمون مكة بالأخشاب الصالحة للبناء والوقود ، كذلك المنطقة الواقعة بين مكة وعرفة كانت حتى القرن السادس عشر الميلادى مغطاة بالأشجار وبالعوسج والسلم ، وهى من الأشجار الصحراوية .

وقد عرف وادى القرى ، وهو واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر فيه قرى كثيرة وبها سمى وادى القرى [٩] ، قال أبو المنذر : سمى وادى القرى لأن الوادى من أوله إلى آخره قرى منظومة . وقد عبر القرآن عن ذلك فى قوله تعالى : " وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير ،(سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ)[١٠] ، وآثار القرى إلى الآن بها ظاهرة ، إلا أنها فى وقتنا هذا كلها خراب ومياهها جارية تتدفق ضائعة لا ينتفع بها أحد . قال أبو عبيد الله السكونى : وادى القرى والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة وعذرة وبلى ، وهى بين الشام والمدينة يمر بها حاج الشام وهى كانت قديما منازل ثمود وعاد ، وبها أهلكهم الله ، وآثارها إلى الآن باقية ، ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظائمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها ، فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفا وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل فى كل عام ومنعوها لهم على بوادى القرى فتلا قوله تعالى " أتتركون فيها ههنا آمنين فى جنات وعيون وزرع ونخل .. الآية " . ثم قال : هذه الآية نزلت فى أهل هذه البلدة وهى بلاد ثمود ، فأين العيون ؟ فقال له رجل : صدق الله فى قوله ، أتحب أن أستخرج العيون ؟ قال : نعم ، فاستخرج ثمانين عينا ، فقال معاوية : الله أصدق من معاوية [١١] .

وهناك أمثلة تاريخية كثيرة ذكرت عن أقوام هلكت كعاد وثمود وأصحاب الأيكة [١٢] ، ومدن ذكرها الكتاب اليونانيون والرومان لم يبق لها أثر ، وكتابات عثر عليها السياح فى مواضع صحراوية مهجورة [١٣] ، كل ذلك يدل على مدى التغير الذى طرأ على بلاد العرب – سواء أكان من الناحية المناخية أم الناحية الجيولوجية – فأدى إلى مقاومة ومنع نشوء المجتمعات الكبرى فيها ، وحول أراضيها إلى بقاع صحراوية ، وطبع الحياة فيها بطابع الرحلة والانعزالية الاجتماعية والسياسية ، ويميل كثير من السياح وعلماء طبقات الأرض الذين جابوا أنحاء شبه الجزيرة إلى تأييد القول بظهور الجفاف فى الألف الثانى قبل الميلاد [١٤] .

والأرض هى مصدر الثراء والغنى للإنسان ، وعلى مقدار ما يملكه الإنسان من أرض تكون ثروته ويكون غناه ، وعلى قدر ما يبذله صاحب الأرض من جهد فى استغلالها وفى تطويرها وفى استنباط ما فى بطنها من خيرات يتوقف دخله منها وغلته التى تأتيه من أرضه هذه .

ولم تعرف ملكية الأرض والماء إلا بين الحضر ، أما الأعراب ، فان هذه الملكية كانت عندها للقبيلة ولساداتها حيث يحمون بعض الأراضين ، أو يستنبطون الماء من أرض موات لا ماء فيها ، فتتحول الأرض بذلك إلى أرض نافعة ذات ماء يبسط حافرها حمايته عليها ويجعلها ملكا له ، وقد يزرع عليها فتصير الأرض التى يزرعها ملكا له ، وبهذه الطريقة تكونت الملكية بين القبائل ، ولا يستطيع أن ينال من هذه الملكية بالطبع إلا المتمكن من أبناء القبيلة ومن سادتها ، ممن يتمكن بما لديه من مال وإمكانيات من استنباط الماء ومن إحياء الأرض واستغلالها بما عنده من أموال وعبيد [١٥] .

ومن هذا الإحياء للأرض الموات ، تكونت بعض المستوطنات فى البوادى ، جلب ظهور الماء فيها الناس إليها فسكنوا حولها وجاءوا من أطرافها للاستقاء من مائها وشجع العثور عليه فى هذا الموضع المتمكنين الآخرين على الحفر أيضا ، فكان إذا ظهر ماء عذب ، جذب الناس إليه وسحرهم بسحره ، وأفاضهم حوله ، فتوسعت

بذلك تلك المستوطنات وتعددت ، وظهرت فيها الملكية الفردية ، والحياة الحضرية القائمة على الحيازة والتملك الفردى بصورة أوسع مما نجدها عند البدوى الاعتيادى الذى لا يملك إلا بيته ، وهو خيمته وأهله ، وما قد يكون عنده من الإبل [١٦] .

وقد اشتهرت فى أرض الحجاز أودية كثيرة من بينها [١٧] :

١- وادى رضوى ، ويصب شمالى ينبع .

٢- وادى العقيق ، وهو يقع غربى المدينة ويشقه طريق مكة .

٣- وادى فاطمة " مر الظهران " ، وهو من أكثر أودية الحجاز خصبا ، ويبدأ من وادى الليمون ، ويمتد غربا إلى " حدة " على الطريق بين مكة وجدة ، ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ثمانين كيلومترا ، وهذا الوادى غنى بمياهه الجوفية وفيه حوالى ٣٥ عينا فياضة بالماء منها " عين المضيق " بوادى الليمون وعين " سولة " وعين " الزيمة " وعين " حداء " .

٤- وادى النعمان ، واد خصب التربة يقع بعد عرفة وفيه بئر ينخفض ماؤها عن سطح الأرض نحو ٣٠ مترا تسمى بئر نعمان ، قيل إنها مبدأ عين زبيدة ، والحقيقة أن ماء هذا البئر يتصل بها من سفوح جبل كرا مجتمعا من الأمطار ، وقد جعلت بين هذه البئر وعين زبيدة قناة هى إحدى القنوات التى تصب فى العين .

٥- وادى إبراهيم ، ويخترق مكة من أعلاها إلى أسفلها .

٦- وادى أضم ، وفيه تجتمع سيول أودية المدينة كالعقيق ووادى قناة ، ووادى بطحان ، ثم تكون هذه الأودية واديا واحدا يدعى القسم الواقع بقرب المدينة منه باسم " أضيم " والقسم الممتد إلى بحر القلزم من هذا الوادى يدعى باسم وادى الحمض لكثرة النباتات التى تحمض الإبل برعيها فيه ، ويصب فى البحر جنوبى الوجه [١٨] .

والحق أن علاقة الإنسان بالأرض التى يزرعها منذ فجر التاريخ وتكامله معها هى حقيقة من العسير دحضها ، فالزراعة بالنسبة للمجتمعات التقليدية – كما يقول أحد الباحثين – ليست علاقة إنتاج اقتصادى فحسب ، ولكنها طراز معيشة اجتماعية

أيضـــا ، وإذا كانـــت علاقـــة الإنسان الاقتصادية والإنتاجية بالأرض هى علاقة مادية وتاريخية مرتبطة بأسباب البقاء وغير قابلة للتجزئة ، إلا أن طراز المعيشة والعلاقات الاجتماعـــية الـــتى تعكسها طبيعة الممارسة لتلك العلاقة الاقتصادية والإنتاجية تتنوع تـــنوعا كبـــيرا وفقـــا لطبـــيعة تـــنوع التركيب الجغرافى والمناخى للأرض من جهة (جبلـــية – نهـــرية – صحراوية صالحة للزراعة – غير صالحة .. الخ) ، وطبيعة الـــتطور ، والمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع من جهة أخرى ، والتى تتأثر بما قـــبلها وتـــأتى وقـــائع الـــتطور امـــتدادا وانعكاسا مباشرا لها إلى هذا الحد أو ذاك ، خصوصـــا فـــى المجـــتمعات التقليدية القديمة ما قبل الصناعة الآلية حيث يميل نمط المعيشـــة إلـــى الـــتكامل السـلبى مع الأرض الزراعية فى المناطق شديدة الغناء فى مواردهـــا الطبيعـــية والزراعية ، وشديدة الفقر فى المناطق الصحراوية والقارية على حـــد ســـواء ، حيـــث تـــؤدى لوجـــود دوافـــع البحث عن أسباب البقاء والعمل على تطويرها [١٩] .

كمـــا تـــؤدى الـــندرة الغـــير عادية لهذه المصادر فى الثانية إلى الحيلولة دون إحـــداث تطـــور حاسم فى تأكيد أسباب البقاء وتطورها المطرد أيضا رغم توفر دوافع البحث لدى الإنسان وحدتها بحكم الضرورة فى هذه المناطق ، بينما استطاعت البيئات الوســـطية الأقـــل غناء والأقل فقرا أن تقدم نماذج واضحة التكامل الإيجابى فى طراز معيشـــة الإنسان واهتمامه وطراز حضاراته أيضا حيث تتوفر منذ زمن مبكر حالة من الـــتوازن والـــتلازم المطرد بين توافر دوافع البحث القوية عن أسباب البقاء من جهة واستجابة البيئة الطبيعية لذلك أكثر فأكثر من جهة أخرى .

ويمكـــن فـــرز ثـــلاث بيئات طبيعية فى شبة الجزيرة العربية وهى كما يأتى : المـــنطقة الخصـــبة (الزراعية) ، المنطقة الأقل خصوبة ، ثم المناطق الصحراوية . والمقصود بالمناطق الأخيرة ، ليست تلك الصحارى الكبرى كالربع الخالى (مثلا) ، إذ لا مجـــال للتنويه بها هنا وذلك لخلوها من النشاط الزراعى ، ولندرة الحياة البشرية فـــيها ، وقـــد أدى هـــذا الـــتحديد (الطبـــيعى) إلـــى تكوين ثلاث مجتمعات فى هذه البلاد [٢٠] :

١- المجـــتمع الحضرى : فإذا ما غضضنا البصر عن دور التجارة فى مجمل الحـــياة الاقتصـــادية لهـــذا المجتمع ، فإن الزراعة ستحتل أهمية حيوية ومركزية فى النشـــاط الاقتصـــادى والمعاشى للناس ، حيث توجد الأرض الخصبة والمياه الوفيرة ، والظـــروف المناخية الملائمة لمثل هذا النشاط الاقتصادى ، وهذا – كما لا يخفى – قد تركـــز بشـــكل خـــاص فـــى اليمن . وقد أطنب الكتاب القدامى بخصوبة اليمن وكثرة مياهها وخيرات مزروعاتها ، حتى أن المصادر الإغريقية سمتها " العربية السعيدة " Arabia Felix ، وبالانجلـــيزية Felicity ، ونعـــتها الكـــتاب المســـلمون بـــ (الخضراء) لكثرة أشجارها وزروعها . ونبه المستشرق (رودوكاناكيس) إلى أن الـــنقوش الحجـــرية المكتشفة فى اليمن تبين بوضوح أن الزراعة كانت هى العمود الفقرى للحياتين الاقتصادية والسياسية للدول العربية الجنوبية [٢١].

ويضع أحد الباحثين [٢٢] فرضا يؤكد أنه على درجة جيدة من الثقة والاطمئنان العلمـــى نتـــيجة تحلـــيل قام به لقوى الإنتاج وبعض الدلالات التاريخية المكتوبة رغم قلـــتها ، بـــأن نظام الملكية الزراعية فى المجتمع اليمنى القديم ، خصوصا فى فترات الازدهـــار الحضارى قد مالت حقيقة فى معظمها إلى الشكل الجماعى فى الاستصلاح والاستثمار والإدارة المركزة تحت إشراف الدولة المركزية وتوجيهها المباشر ، إذا لم يكـــن قد تم امتلاكها ملكية جماعية بالفعل تنظمها الدولة بموجب تنظيمات وتشريعات تصـــدر عـــنها وتراقـــبها ، وخصوصا وأن القول أو حتى التكهن بانتشار نمط الملكية الإقطاعية الفردية للأرض فى تلك المراحل المبكرة والمزدهرة هو من الأمور التى لا يـــتوفر لها أى سند واقعى لا فى طبيعة الظروف الموضوعية المكونة لقوى الإنتاج (طبـــيعة التكويـــن الجغـــرافى وكمية الموارد الاقتصادية) ولا فى الدلالات التاريخية المـــتاحة حـــتى الآن والمكونـــة لعلاقـــات الإنـــتاج (تـــاريخ الدول والنظم السياسية والاقتصادية والدينية) والتى تكاد فى مجملها أن تقف على طرفى نقيض أو على خط مـــتعارض علـــى الأقل مع مبدأ انتشار طابع الملكية الإقطاعية الخاصة للأرض وفى فترات الازدهار الحضارى القديم بالذات .

٢- المجـتمعات شـبة الحضـرية : [٢٣] تعيش مثل هذه المجتمعات بصورة خاصـة فى الحجاز ونجد والساحل الشرقى والجنوبى (فى جوار اليمن) من الجزيرة العربـية حيـث كانت أحوالها الجغرافية – فى أغلب أقسامها – غير قادرة على خلق ظـروف مناسـبة لقـيام زراعة مزدهرة إذ لم يكن فى هذه المناطق أنهار جارية خلا بعض الوديان التى تسيل فيها مياه الأمطار القليلة . ومع أن العيون والآبار قليلة نسبيا ومـياهها ضـحلة ، فقـد قامت حولها بعض الجواء (الواحات) . وبالرغم من ذلك فيمكـن أن نعـدد فـى هذه المنطقة الأقل خصوبة ، مناطق عديدة كانت الزراعة فيها تشـكل ركنا أساسيا فى حياتها المعاشية مثل السفوح الشرقية من سلسلة جبال السراة ، ونجـد ، وفى الجهات الشرقية والجنوبية من جزيرة العرب . أما أهم المدن فى شمال الجزيـرة العربية التى أحيطت بالمزارع والتى اعتمدت فى اقتصادها على الزراعة ، وكذلـك الـتى يمكـن اعتبارها من نتاج مجتمع المستوطنات ، فهى يثرب ، وخيبر ، والطـائف ، وتيماء . ومن الجدير بالذكر أن هذه المناطق الزراعية بقسميها الخصب والأقـل خصـوبة ، لـم تكن تؤلف – فى الواقع – إلا جزءا يسيرا إذا قيست بالنسبة لمجموع شبه الجزيرة كلها [٢٤] .

٣- المجـتمعات الـبدوية : أما المناطق البدوية كتهامة ونجد وصحراء النفود والبحريـن فقـد اعتمد أهلها على رعى الأغنام والانتقال بها وراء الكلأ والماء . وقد كانـت الإبل – ولونها كلون الصحراء – هى الحيوان العزيز الذى اتخذه الإنسان فى مـثل هـذه البيئة فيأكل لحمه ويشرب لبنه ، ويصنع من شعره مسكنه وأثاثه ومتاعه وملابسـه . ولكـن المجاعة وانقطاع المطر كانت تهدد العربى وأسرته فى كل وقت بحيـث أنها كانت تدفعه أحيانا إلى أكل نحاتة قرون خروف وظلافها [٢٥] ، أو أن يفتح عـرقا فـى جمـل ليشرب دمه ، وأحيانا أخرى إذا زاد به الجوع ، ربط حجرا على بطـنه . وكان بعض الأعراب يذبحون الكلاب كقبيلة أسد أو يأكلون لحوم الناس كقبيلة هذيـل أو يـأكلون الجـراد كقبيلة طئ ، كما أن بعض الأعراب كانوا يأكلون الحيات والعقارب والجعلان والخنافس وحتى القمل .

ومـــا كان البدوى يفكر فى الاشتغال بمورد ثابت يربطه بمكان لا يبرحه طول حـياته وتســتره حـيطانه عــن نور الفضاء واتساعه الفسيح الأرجاء ، ومن ثم أنف الاشــتغال بالــزراعة فترك ذلك لغيره ممن كان يعتبرهم أقل من البدو أنفة وكبرياء . وكـــان مــبدؤه فى ذلك " الذل بالمحراث ، والمهانة بالبقر ، والعز بالإبل ، والشجاعة بالخيل " (٢٦) .

وبالـــرغم مـــن أن الـــزراعة لـــم تكـــن تشـــكل العنصر الأول فى حياة هذه المجـــتمعات ، بـــل اقتصـــرت على بعض المناطق فيها ، فإن الأغنياء والموسرين قد مارســـوا أشـــكالا مـــتعددة مـــن النشاط الزراعى تبعا لطبيعة وملكية الأرض والناس العامليــن علــيها ، مثل الزراعة والمؤاجرة ، والمخابرة ، والمحاقلة والمزابنة ، ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الأثرياء – لا سيما اليهود حيثما وجدوا – كانوا يبدون حماسا شـــديدا للاســـتحواذ علـــى الأراضى الزراعية ، وطريقتهم المفضلة لذلك هى إقراض المـــال بالـــربا ، ومـــتى عجز المقترض عن تسديد ما بذمته ، استولوا على أرضه أو غلـــته بـــل وحـــتى حريته الشخصية أو حرية بعض أفراد عائلته ، وقد يكون للعرف الجـــاهلى فـــى افـــتخارهم بحيازة الأراضى الزراعية وبازدرائهم للاشتغال بالزراعة بأنفسهم أثر فى استخدام العبيد فى كراء الأرض واستغلالها (٢٧) .

والأرض عامـــر أو غامـــر ، والعامر المأهول والمزروع والمستغل ، والغامر خلاف العامر وهو الخراب . والغامر ، الأرض ما لم تستخرج حتى تصلح للمزارعة والغرس . وقيل : هو ما لم يزرع مما يحتمل الزراعة . وإنما قيل له غامر لأن الماء يـــبلغه فـــيغمره (٢٨) ، ويقـــال لـــلأرض العامرة : السوداء ، وأرض سوداء ، أرض ســـوداء ، أرض مغروســـة ، والأرض فـــى عـــرف العـــرب إذا غرســـت أسودت واخضـــرت ، و (البيضـــاء) ، الخـــراب من الأرض لأن الموات من الأرض يكون أبيض (٢٩) .

والـــبور ، الأرض قبل أن تصلح للزرع ، وقيل : هى الأرض التى لم تزرع ، أو الأرض كلهـــا قبل أن تستخرج حتى تصلح للزرع أو الغرس . وذكر أن المعامى .

الأعـــلام مـــن الأرض مـــالا حد له . والإغفال مالا يقال على حده من الأرض [٣٠] . والمعـــامى علـــى حد قول بعض العلماء إغفال الأرض التى لا عمارة بها ، أو لا أثر للعمارة بها [٣١] . والغفل : مالا عمارة فيه من الأرضين .

الرى :

وقد تنبه اللغويون والأدباء إلى أهمية المطر فى الشعر العربى القديم ، فخصوه بصـــحف كثـــيرة تعـــنى بشـــرح ألفاظه ، وتفسر معانيه ، وتبيان أحواله ، وأسمائه ، وصـــفاته ، وأشـــكاله ، وما يتبعه من سحاب وثلج وبرد وريح ورعد وبرق وكسوف وأنـــواء • وخصوا الأنواء بنصيب كبير من كتب المطر ، عصفت يد الزمان بأكثرها ولـــم مـــنها إلا القليل ، وإلا أسماء مجردة تكشف عن علم ضاع واندثر ، وأثبت " أبو سويلم (٣٢) قائمة بها ، نذكر من بينها :

- كتاب الأنواء للدهنى ، معاوية بن عمار العبدى (ت ١٤٥ هــ)
- كتاب الأنواء لابن عمار ، إسماعيل بن عمار بن عيينة الأسدى (نحو ١٥٧ هــ)
- كـــتاب الأنواء لأبى عبد الله القاسم بن معن بن عبد الرحمن المسعودى الكوفى (ت١٧٥ هــ) •
- كتاب الأنواء لأبى فيد ، مؤرج بن عمرو السدوسى (ت ١٩٨هــ) •
- كتاب الأنواء للنضر بن شميل اللغوى المحدث (ت ٢٠٣ هــ)
- كتاب الأنواء لقطرب ، محمد بن المستنير (ت ٢٠٦ هــ) .
- كتاب الأنواء لابن كناسة ، أبو يحيى عبد الله بن يحيى (ت٢٠٧ هــ) .
- كتاب المطر لأبى زيد الأنصارى ، سعيد بن أوس (ت٢١٥ هــ) .
- كتاب الأنواء للبغدادى ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هــ) .
- كتاب الأنواء لأبى محلم الشيبانى ، محمد بن هشام بن عوف (ت ٢٤٥ هــ) .
- كتاب الخصب والقحط للسجستانى ، أبى حاتم سهل بن محمد (ت ٢٥٠ هــ) .
- كـــتاب أسماء السحاب والرياح والأمطار للزيادى ، أبى إسحق إبراهيم بن سفيان (ت ٢٤٩ هــ).

-كتاب السحاب والغيث وأخبار الرواد وما حمد من الكلام ، لابن دريد أبى بكر محمد بن الحسن الأزدى (ت ٣٢١ هـ) .

وكانت الأمطار الغزيرة تسقط على سهول نجد وصحاريها فى أوقات متباعدة فينقشع عنها الجدب ، ويشيع فيها الخصب ، وقد وصف شعراء نجد مشاهد المطر الرائعة ، وما كان يصاحبها من برق ورعد وسحب تقترب من الأرض ، ثم ينهل منها الماء فيجرى فى جنباتها ويملأ غدرانها ووديانها ، ووصفوا أثر المطر فى إحياء الأرض بعد موتها ، فإذا وجهها تكسوه الأعشاب والأشجار والأزهار ، وإذا هذه المناظر الخلابة تبعث الفرحة والمسرة فى الإنسان والحيوان والطير ، وصوروا أيضا السيول الجارفة التى كانت تجتث كل ما تمر به وتأتى عليه إذ كانت تهدم البيوت وتقتل الحيوان وتقتلع الأشجار [٣٣] .

وفى الأخبار التى تروى عن الجاهليين وغيرهم من تقديس بعض الآبار والعيون والتبرك بشرب الماء منها دليل على نظرة التقديس التى نظرتها الشعوب السامية وغيرها إلى الماء ، فالماء هو الحياة ، ولابد أن تكون هذه النظرة التقديسية هى التى حملت على تقديس بئر زمزم ، ولا يقدر أهمية البئر حق قدرها إلا سكان هذا البلد الكائن فى واد غير ذى زرع وماء. ولولا زمزم والآبار الأخرى التى احتفرها أهله ، والآبار والعيون الواقعة فى أطرافه ، يحملون منها الماء إلى بلدهم حملا ، لهلك أهله ، أو هجروه ولا يدرك المرء قيمة الماء إلا إذا كان فى صحراء قفرة لا ماء فيها ثم نفذ ماؤه ولهذا كان الغيث رحمة عظمى للأعراب بغيثهم بعد أن يتعرضوا للجدب والهلاك [٣٤] .

ولا غرابة بعد ذلك أن نجد العرب تقول فى دعائها على الإنسان : ماله أحر الله صدره ، أى أعطشه أو قيل : معناه أعطش الله هامته ، وأحر الرجل فهو محر أى صارت إبله حرارا أى عطاشا . وفى الدعاء : سلط الله عليه الحرة تحت القرة ! يريد العطش مع البرد ، قال اللحيانى : هو دعاء معناه : رماه الله بالعطش والبرد [٣٥] .

ومـــن الناحـــية الهدرجرافية ، فان بلاد العرب فى جملة البلاد التى تكاد تنعدم فـــيها الأنهـــار والبحيرات ، ويندر سقوط الأمطار عليها ، ولذلك صارت أكثر بقاعها قليلة السكان غير أنها كثيرة الأودية التى تسيل فى بعضها المياه عند سقوط الأمطار ، وبعضها يسير فى اتجاه ميل الأرض ، كما أن بعضها الآخر وبخاصة التى تصب فى الـــبحر الأحمـــر تصـــير عميق المجرى شديد الانحدار ، تنحدر فيه السيول بشدة إلى الـــبحر فتضـــيع فـــيه ، وربمـــا كانت فى بعض الأحيان خطرا يهدد القوافل والمدن والأملاك ، ويأتى على الناس بأفدح الخسائر (٣٦) .

وفى الحجاز مواقع لعدة سدود أقيمت لحفظ المياه التى تلى سطح البحر ، وعدد منها يحتوى على سدد من أصل قديم ، ومن بينها (٣٧) :

١- ســـد العـــيار ، ويـــبعد نحو ستة أميال شرقى الطائف ، وعلى صخوره كتابة كوفـــية تدل على أنه أنشئ على عهد معاوية أمير المؤمنين ، وقد بناه عبد الله بـــن إبراهـــيم عام ٥٨ بعد الهجرة ، ٦٨٠ بعد الميلاد ، ولم يستعمل فى بنائه الطين والملاط .

٢- ســـد الســـملجى أو (السملقى) ، ويعرف كذلك بسد ثمالة أو سد بنى هلال ، ويبعد نحو عشرين ميلا من جنوب شرقى الطائف .

٣- سد الجبر جب بالقرب من وادى محرم ، ويقع على بعد ٨ أميال شمالى غربى مدينة الطائف ، وهو جديد نسبيا .

٤- ســـد الحصيد ، وهو أحد ستة سدود لتخزين مياه الرى حول خيبر ، وهذا السد مبـــنى من حجارة مكسورة مع ملاط وكلس ، ويبعد نحو ١٥ ميلا إلى الجنوب الشرقى من قرية خيبر ، وطول قاعدته ١٨٢ قدما ، ويعلو فوق مجراه المبنى مـــن الحجر ٢٨ قدما ، وسعته نحو ٧٥٠ فدانا ، ويقال إن هناك خمسة سدود أخرى موجودة بحالة مماثلة لذلك السد .

٥- ومـــن الســـدود الفرعـــية كذلك سد ثلبة ، وسعته ٦٤٠٠٠ متر مكعب ، وكان الغـــرض منه تخفيف حدة السيول وحماية البساتين ، وسد العرض وهو قريب من الطائف ، وقد تهدم هذا السد .

وليس فى شبه الجزيرة العربية نهر واحد بالمعنى المعروف من الأنهار ، وما فيها من جداول غير صالحة للملاحة ، فهى إما قصيرة سريعة الجريان ، شديدة الانحدار ، وإما ضحلة تجف فى بعض المواسم ، غير أن العلماء يستنتجون من اتجاه الأودية ومن وجود العاديات والخرائب وآثار السكنى على أطرافها والترسبات التى تمثل قيعان الأنهر ، أن هذه الأودية فى الحقيقة كانت أنهارا فى يوم من الأيام ، وأن جوانبها كانت مأهولة بالسكان زاخرة بالحياة ، ويؤيد هذا الاستنتاج ما ورد فى كتب اليونان والرومان من وجود أنهار طويلة فى بلاد العرب ، فقد ذكر هيرودوت اسم نهر دعاه (كورس) قال عنه أنه من الأنهر العظيمة وأنه يصب فى بحر الأريتريا ، ويقصد به البحر الأحمر (٣٨) .

ويرى بعض العلماء أن المكان الذى ذكره هيرودوت هو وادى الحمض ، المار بشمالى " قرح " (٣٩) (على مسافة ٤٣ كيلو مترا من الحجر) ، وقد كانت عامرة فيما مضى بالزروع والبساتين ، وهى المعروفة " ببساتين قرح " ، ويوجد بالقرب منها " سقيا يزيد " أو قصر عنتر " كما تسمى فى الوقت الحاضر على بعد ٩٨ ميلا من شمال المدينة (٤٠) . كما ذكر بطليموس اسم نهر عظيم سماه (لار) Lar زعم أنه ينبع من منطقة نجران أى من الجانب الشرقى من السلسلة الجبلية ، ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقا بلاد العرب حتى يصب فى الخليج العربى . ويرى بعض العلماء أن هذا النهر الذى يشير إليه بطليموس هو وادى الدواسر والذى تمده بعض الأودية المتجهة من سلاسل جبال اليمن بمياه السيول (٤١) .

وقد قسم بعض العلماء المياه المستخرجة إلى ثلاثة أقسام : مياه أنهار ، ومياه آبار ، ومياه عيون . وقسموا مياه الأنهار إلى ثلاثة أقسام : أنهار كبار لم يحفرها الآدميون وأنهار صغار لم يحتفرها الإنسان ، وأنهار احتفرها الناس ، فتكون ملكا لمن احتفرها لا حق لغيرهم فى الانتفاع منها .

وأما الآبار ، فآبار تحفر للسابلة ، فيكون ماؤها مشتركا ، وآبار تحفر للارتفاق بمائها كالبادية إذا انتجعوا أرضا وحفروا فيها بئرا لشربهم وشرب مواشيهم ، كانوا

أحـــق بمائها ما أقاموا عليها فى نجعهم ، فإذا ارتحلوا عنها صارت البئر سابلة وآبار مملوكة ، وتكون ملكا لمالكها لا ينازعه عليها منازع .

وقســموا العــيون إلـــى ثلاثـــة أقسام : عيون لم يستنبطها الآدميون ، وعيون اســـتنبطها إنســـان فتكون ملكا لمن استنبطها ويملك معها حريمها ، وعيون يستنبطها الرجل فى ملكه فتكون ملكا له (٤٢) .

وكانـــت الآبار تنظف من الأتربة والطين والأوساخ المتراكمة بالجبجبة ، وهى نوع من الزبيل يصنع من الجلد ، كما يستخدم الثوج فى التنظيف والتنقية من الشوائب والعلائق وكانت تصنع من الخوص ، أما الحفص فهى زبيل صغير من أدم ٠ وكانت الآبـــار الكبيرة تنظف بنزول الرجل فيها فيشد الرجل من وسطه بالحبل ويترك طرفه فـــى يـــد رجـــل آخر ، ويقال لهذا الحبل الجعار ، وكانت تترك فى جدر الآبار أماكن للأقـــدام ليتمكن الرجل من النزول والصعود بعد أداء مهمته ٠ ومن ناحية أخرى كان يســـتعان بالثـــيران والجمـــال والحمير والبغال فى متح الماء بالدلاء من الآبار الكبيرة الواسعة لسقى المزارع والبساتين والناس ، ويشرف على ذلك العبيد أو الفلاحون ٠

وقـــد أدت حالـــة القلـــق وعدم الركون إلى استمرار وانتظام موارد المياه فى المجتمع اليمنى القديم إلى أن يتطلع اليمنيون إلى ما يتجاوز حدود واقعهم المعطى وأن يتشـــبعوا دائما بروح الحذر وعدم الركون للأمر الواقع أو الاستسلام له تحت مختلف الظـــروف ، فالمزارع اليمنى كان مثلا يضع فى احتماله توقف هطول الأمطار لبعض الوقـــت أثـــناء وجود المحصول الرئيسى فى الأرض بحيث يؤدى التوقف إلى تدهور كبـــير فـــى كمـــية الـــناتج فى النهاية ، فيبادر فى نفس اللحظة إلى اقتلاع المحصول الرئيســـى من الأرض نهائيا واستبداله بمحصول آخر يتناسب مع موسم المطر وكمية هطولـــه الـــتى تمـــت بالفعل أو المتوقعة . وقد يحدث العكس تماما حينما تكون كمية الأمطـــار أكـــثر مـــن الـــلازم ، فتجرف الأرض وتفسد المحصول ، كما أنه قد يفاجأ بهطـــول أمطار غزيرة فى وقت لم يكن يتوقع هطولها كثيرا بهذه الكمية ، فيبدأ ينتهز الفرصـــة بزراعة الأرض بالمحصول المناسب لكمية الأمطار فى هذا الوقت من السنة

ويجنى بذلك محصولا وفيرا غير متوقع ، وقد يتوقع مرور موسم كامل دون أن يجنى أى محصـــول رغـــم محاولاته الكثيرة والمتكررة ، فيعمد إلى اقتلاع المحصول نهائيا وإراحـــة الأرض مـــن الزراعة فى هذا الموسم نهائيا والاستعداد للانتقال إلى المناطق المجاورة حيث يكون المحصول وفيرا للعمل هناك حتى نهاية الموسم (٤٣) .

كمـــا أنه يظل فى عملية صراع دائم فيما يتعلق بتوفير الكمية الكافية من المياه لـــرى المحصـــول مـــن خـــلال عمل القنوات والمساقى التى تعترض مجرى السيول المـــنحدرة لكى يوجهها إلى قطع الأرض المتناثرة هنا وهناك التى يملكها . وقد يحدث العكـــس ما بين لحظة وأخرى حينما يعانى الأمرين فى سبيل تجنيب قطع الأرض هذه ممـــرات المياه الغزيرة وشديدة الانحدار التى يتجاوز حد الحاجة ، وتشكل خطرا ليس علـــى المحصـــول فحســـب ، بل وعلى الأرض نفسها حيث قد تقوم السيول بجرفها وتدمـــير مدرجاتها المسطبية المعقدة البناء ولعل مثل هذه الظروف هى التى دعت إلى التفكير فى إنشاء سد مأرب .

فعلـــى بعـــد مائة وتسعين كيلو مترا شرق مدينة صنعاء عاصمة اليمن وعلى أطـــراف الربع الخالى ، فى ذلك الوادى الفسيح المترامى الأطراف المرتفع فوق سطح الـــبحر بـــ ٣٩٠٠ قدم ، نشأت حضارة عريقة ،وقامت مملكة واسعة عرفها التاريخ باسم مملكة سبأ ، واتخذت عاصمتها مدينة (صرواح) ، ثم مدينة مأرب التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن قبل الميلاد (٤٤) .

وعلـــى بعـــد بضعة أميال من مأرب ، وعند ذلك الممر المائى الذى تلتقى فيه عشـــرات الوديـــان المائـــية والأنهار الصغيرة التى تنحدر من جبال اليمن إلى وادى اذنه (٤٥) بنى السبئيون سدا عظيما يعد من أكبر الحواجز المائية آنذاك ، وأحد عجائب العالم القديم فى الهندسة المعمارية .

وكـــان طـــول السد ٨٠٠ ذراع وعرض ١٥٠ ذراعا ، بناه " نمر على وتر " وأكملـــه " يـــنعمر بـــيان " وأضـــاف اليه " شمر يرعش " إضافات مهمة وكان بناؤه

بالحجـــارة فــى طرفى جبلين حيث يتفرع عدد من القنوات ، وكان على فوهة كل قناة سد آخر مبنى بالحجارة فيه فتحة أشبه بالناظم [٤٦] .

وأول مــن شـــاهد أنقــاض هــذا السد من المسلمين هو الهمدانى (توفى سنة ٩٤٥م) ووصـــفه وصـــفا دقــيقا فقال " والجنتان عن يمين السد ويساره (اللتان أشار إلــيهما القرآن) وهما اليوم غامرتان ، وإنما عفتا لما اندهق السد ، فارتفعتا عن أيدى السـيول . وأما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ مــن عملهــا بالأمس ، ورأيت بناء أحد الصدفين باقيا ، وهو الذى يخرج منه الماء ، قائمــا بحاله على أوثق ما كان وقد بقى من العرم شئ مما يصالى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله خمس عشر ذراعا " [٤٧] .

ولقــد كــان هــذا السد السبب الأول فى رخاء المنطقة وسدادها وبروزها إلى مســرح الحضـــارة العالمــية كبلد له تاريخ مجيد وماضى مزدهر ، ويكفى أن القرآن الكــريم قــد وصفها بالبلدة الطيبة ونعت أهلها بالقوة والبأس الشديد ، كما كان انهدامه بعد ١٢ قرنا من الزمن العامل الأكبر فى بلاء هذه المنطقة وشقائها وتفرق أهلها .

ولــيس من السهل معرفة الوسائل التى كانت تقوم عليها عملية إغلاق الفتحات الــتى بالســد لغرض حفظ المياه ، ثم فتحها بقصد تصريفها إلا أن يشاهد على أبواب تلــك الفــتحات أعــتاب جانبــية بارزة ربما كانت مواضع أبواب متحركة يتم فتحها وإغلاقها بطريقة آلية دقيقة جدا [٤٨] .

ونظــرا لضـــخامة البنــيان فمما لا شك فيه أن إنجازه قد استغرق طويلا من الزمن ، ويوجد على أحد جوانب السد نقش الملك شرجبيل يحدثنا بأن ترميم السد عام ٤٥٠م قــد أخذ من الوقت ما يزيد على الثلاثين عاما ، وإن اشترك فى العمل عشرون ألــف عـــامل ، أما نقش أبرهة الذى رمم السد ثانية عام ٥٤٣م ، فينص على أن مدة العمـــل كانـــت أحد عشر شهرا فقط إلا أن عمل الملك شرحبيل لم يقتصر على ترميم الســد فقــط بــل اكتــنفه تشــييد سدود أخرى وإصلاحات تتعلق بالأرض والحقول مصـــارف ، ومـــا يدرينا أن الإمكانيات التى سخرت كانت من القوة والقدرة بحيث

سهلت إنجاز هذا المشروع الجبار خلال مدة قصيرة من الوقت [٤٩] ، وربما لا تتعدى مواســم الجفــاف لأن بناء جزء دون آخر معناه تعرض الجزء المبنى للسيول القوية التى تأتى أيام الأمطار فتكتسح ما أمامها من حجر وشجر ، ويستنتج من هذا أن مئات الألوف من السبئيين قد اشتركوا فى تشييد السد .

وتصـــف الدكـــتورة كلـــود فايـــان الطبيـــبة الفرنسية بقايا سد مأرب بقولها : " لا تزال الأحجار المنحوتة ببراعة ، منطبقة بإحكام ، ولا يزال الأسمنت الذى يغطى منحنـــيات القـــنوات كما هو ، وكأنه لم تمر فترة طويلة عليه ، ولا يسع المرء إلا أن يعجب بدون تحفظ إزاء اكتمال هذا العمل الجديد بنسبته إلى مهندس معاصر " [٥٠] .

ويذكـــر ويـــندل فيلبس طريقة بناء السد فيقول " وأكثر ما أدهشنا بالفعل كانت الطـــريقة التى وضعت بها تلك الحجارة الهائلة بعضها فوق بعض ، وبترتيب دقيق ، بحيث كان الحجر يناسب الآخر وكأنها قطع من الفسيفساء ، وقد رأينا قسما من جدار الســـد يـــرتفع ٥٠ قدما ما زال شامخا كما كان عندما أنشأه فنانو سبأ العظام قبل عام ٢٧٠٠ ق.م [٥١] .

وبعـــد ســـتة قـــرون على بناء سد مأرب ، بدأ التصدع ، ففى عام ١٤٥ ق.م ظهـــرت أول بوادر الانهيار والخراب ، ولكن سرعان ما تضافرت الجهود لترميمه ، وظـــل قائما حتى عام ١١٥ ق.م فداهمته السيول وأصابه الدمار ، فحلت بالبلاد كارثة عظمـــى ، وأصـــابت ســـكان اليمن أعظم مصيبة عرفها التاريخ القديم ، فتفرقوا فى الأرض بعـــد انهـــيار السد ، وكان ذلك هو سيل العرم [٥٢] " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتا أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل " [٥٣] .

وإذا كانت الطبيعة الجغرافية المتضرسة لمناطق الارتفاعات الجبلية أو مناطق المدرجات فى جنوب الجزيرة قد حدت بطبيعتها من طموح المزارع العربى فى اليمن فـــى الحصـــول علـــى مساحات أوسع من الأرض ومجال أرحب لتحدى هذه الطبيعة والإحســـاس بالـــتفوق عليها ، فان المناطق الأقل تضرسا فى الوديان العميقة وسفوح الجـــبال والمســـاحات الداخلـــية والمـــتداخلة مع تلك المرتفعات الجبلية قد أعطت هذا

الإنسان الفرصة الذهبية الكافية لتحقيق كل طموحاته المادية والمعنوية بدون أدنى شك ، ذلك أنه بالرغم من أن ٩٩% على الأقل من مجمل الأراضى والسدود والمزارع الاقتصادية التى تم استصلاحها منذ أكثر من ٣٥٠٠ سنة على الأقل قد تهدمت تماما مرافق ريها ومواصلاتها من سدود وطرقات ، إلا أنه ما يزال فى مقدورنا أن نشاهد بالعين المجردة بقايا وأنقاض هذه الأراضى الزراعية ومرافقها من سدود وطرقات وغيرها بطريقة لا تختلف كثيرا عن مشاهدة آثار الحصون والمدن القديمة أيضا [٥٤] .

أن الكثير من هذه المزارع كان يمتد بعضها ليشمل مساحات من الأراضى تتجاوز مئات الأفدنة إن لم نقل آلافها ، وذلك من خلال ملاحظة بقايا الجدران والحواجز الصخرية التى يمتد طول بعضها إلى عدة كيلو مترات لتحتضن مناطق جغرافية بأكملها والتى تم بناؤها بطريقة شبه أسطورية من حيث حجم الأحجار ومتانته بنائيا وبارتفاعات يصل بعضها إلى عشرين مترا ، فنمط هذه الجدران منتشر فى معظم المناطق المشار إليها والتى كانت تحتضن وراءها المساحات الزراعية الهائلة قبل أن تتحول اليوم إلى أحراش أو قطع من الأرض المفتتة عديمة الرى ورديئة المحصول حيث ما يزال يضرب بتلك الجدران والحواجز المثل بين الفلاحين والمزارعين حتى اليوم فى الإتقان والمتانة ، وفى التفرقة بين أنواع الحواجز والجدران الزراعية الجيدة والرديئة فى البناء بصفة عامة . إذ أنه من السهل عليك أن تسمع أحد الفلاحين وهو يفخر بأنه قد أقام أرضه على جدار (أسعدى) أو جدار (جاهلى) أو جدار (قرمطى) وهى التسميات التى صاروا يطلقونها على آثار تلك الجدران والحواجز المنيعة هنا وهناك من بقايا السدود والطرقات والمزارع الكبيرة [٥٥] .

والأودية هى أعظم مناطق الماء والخصب فى الجزيرة العربية كما أشرنا ، ويقال للوادى (العقيق) ، والعرب تقول لكل مسيل ما شقه السيل فى الأرض فأنهره ووسعه عتيق [٥٦] ، قال ياقوت أن بلاد العرب كان بها أربعة أعقة وهى أودية عادية شقتها السيول ، وقال الأصمعى : الأعقة ، الأودية ، فمنها عقيق عارض اليمامة ،

وهـو واد واسع مما يلى العرمة يتدفق شعاب العارض وفيه عيون عذبة الماء ، ومنها عقيق بناحية المدينة وفيه عيون ونخل .

وقـد صور الشعر العربى القديم ما ازدهرت به يثرب من زراعة ، وكثرة الآبار وانتشـار النخـيل ، يقـول كعـب بـن الأشرف اليهودى مفتخرا بما لهم من مزارع ومياه [٥٧] :

ولنا بئر رواء جمـــة | من يردها بإنـاء يغترف
ونخيل فى تلاع جمـة | تخرج التمر كأمثال الأكف
وصرير فى محال خلته | آخر الليل أهازيـج بدُف

وفـى الطـائف يعيش الناس حياة مستقرة متحضرة ، لعلها ناشئة عن اشتغال أهلها بالـزراعة والـتجارة معـا ، فقد كانت أرضهم خصبة ، ومناخهم معتدلا حتى لكأنها قطعـة مـن بلاد الشام ، ولأجل هذا امتدح الشاعر طيب عيشهم الذى تجافى عن حياة البداوة الغليظة [٥٨] :

لله در ثقيف أى منزلـــة | حلوا بها بين أهل الأرض والجبل
قوم تخير طيب العيش رائدهم | فأصبحوا يلحفون الأرض بالحلل
ليسوا كمن كانت الترحال همته | أخبث بعيش على حل ومرتحـل

وكـان مـا يساعد أهل مدينة يثرب على احتراف الزراعة أن كانت تسيل بها وديان كثيرة تفيض بمياه السيول التى تتجمع فى الحراث الشرقية والجنوبية فى فترات مخـتلفة من السنة فتسيل إلى الغرب والشمال حتى تتجمع آخر الأمر فى شمال غرب المدينة عند مجمع الأسيال حيث تنصب فى وادى أضم الذى يسيل شمال غربى أحد . وهـذه الوديـان كانـت تتخلل منطقة المدينة كلها فتروى أرضها ، وتسيل مياهها من شـراج الحرة الشرقية فى مياه قليلة عادة لا تصل إلى أكثر من ارتفاع الكعبين ولكنها كانـت أحـيانا تفـيض حتى تصل إلى أنصاف النخل ، وكان الزراع يسقون نخيلهم وزروعهم من هذه المياه فيقسمون الماء بينهم بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية حتى يسقى نخله فتصل إلى جذوره بارتفاع الكعبين ، ثم يرسلها إلى من هو أسفل منه

فيسـق [٥٩] . وفى الأوقات التى تشح فيها مياه الوديان أو تنقطع ، وفى الأماكن التى لـم تكـن تصـل إلـيها ، كان الناس يستخدمون مياه الآبار فى إرواء مزروعاتهم ، فـيرفعونها مـن الآبـار لـرى الأراضى القريبة من البئر أو يحملونها على الجمال النواضح لرى الجهات التى تبعد عنها [٦٠] .

وكـان جـل أهـل المديـنة يعملون بالزراعة ، منهم من كان يملك الأراضى الواسـعة يـزرعها لحسابه أو يزارع عليها غيره أو يكريها (يؤجرها) ، ومنهم من كان يملك قدرا يقوم على زراعته بنفسه ، ومنهم من لم يكن له ملك خاص فيزرع فى ارض غيره مزارعة أو كرا [٦١] .

وكانـت لهم طرق فى المزارعة والمؤاجرة ، بحسب جودة الأرض ، فقد كانوا يـزارعون علـى الثلث أو على الربع وأحيانا على النصف مما تنتجه الأرض ٠ أما المؤاجـرة فلـم تكن المعاملة فيها بالدنانير أو بالدراهم ،وإنما كان لهم فيها أيضا عدة طرق ، إما يؤجر الشخص حقله على الربع من المحصول مع شئ من التبن ، أو شئ مـن المحصول يستثنيه صاحب الأرض ، أو يؤجرها على عدد محدد من أوسق التمر والشـعير ، أو أن يسـمى قسم من الحقل لصاحب الأرض وقسم للزارع ، وكل منهما يـأخذ ما ينتجه قسمه قل أو أكثر ، وكان ربما يحدث أن يصاب أحد القسمين فيضعف محصوله ، أو لا ينتج أصلا فيلتزم صاحب القسم الآخر تجاهه بشئ [٦٢] .

وينـتفع مـن الأحساء والرحاب فى الزراعة ، وذلك باستنباط مياهها الجوفية المنحسـرة عن قشرة الأرض بمسافة غير بعيدة ، والتى قد تظهر على سطح الأرض وتسـيل ، والحسـى سهل من الأرض يستنقع فيه الماء أو غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطـر [٦٣] ، يقول ياقوت " هو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمل ن فإذا صار إلى صلابة امسكته فتحفر العرب عنه الرمل فتستخرجه " [٦٤] .

وعلـى أطراف الجزيرة من الشمال قامت مملكتا المناذرة والغساسنة ، وكانت تتصلان بالفرس والروم بأسباب قوية ، وقد هيئ لهما ممن دواعى التحضر ما جعلهما تتمـتعان بما تتمتع به الدول المتحضرة وقتذاك من رغد العيش وهناءته ، يصور ذلك

قصـيدة الـنابغة الذبيانى فى المتجردة زوج النعمان – إن صحت – وقصيدة المنخل اليشكرى فى هند أخت عمرو بن هند التى يقول فيها (٦٥) :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر فى اليوم المطيـر

الكاعب الحسناء ترفل فى الدمقس وفى الحرير

فدفعتهـا فتدافعـت مشى القطـاة إلى الغديـر

ولثمتـها فتنفسـت كتنـفس الظبـى البهيـر

فهـذه أبيات تصف مدى ما وصل إليه المناذرة من الترف والتبذل إلى درجة التخنث ، بحيث أصبح الاختلاط بين نسائهم والأعراب أمرا ميسورا .

ويشـير مـا بيـناه مـن جهود فى التعامل مع مصادر المياه أن إنسان المنطقة العربية يقدم الدليل تلو الآخر على قدرته على أن يطوع ظروف البيئة تيسيرا لحياته ، ولذلـك نجـد أن المشـروعات المائية تعددت وتنوعت بطول البلاد وعرضها . ففى أقصـى شمال الجزيرة العربية عندما تتلاقى مع الشام نجد فى بلدة (بصرى) كذلك " الـبركة الشـرقية " لأنهـا تقع شرقى الطريق المستقيم الرئيس حيث تعتبر أقدم خزان للمـياه قائم حتى الآن فى المدينة ، وتشبه إلى حد ما تلك المواجن فى منطقة القيروان التونسـية حيـث تجمع مياه السيول وهى على شكل مربع تقريبا طول ضلعه ١١٤م وعمقهـا ٦م . ويسـتدل من الحروف النبطية المحفورة على معظم أحجار هذه البركة أن تـاريخ بـنائها يعـود إلـى الزمن الأول قبل الميلاد عندما أخذت المدينة بالتوسع والـتطور وأصـبحت مركزا للقوافل ، وكانت البركة متصلة بالمدينة بواسطة أنابيب فخاريـة فـى منتصـف جدارهـا الغربى ، ويبلغ عرض جدرانها قرابة أربعة أمتار مدعومـة بركائـز متوصلة بعرض مترين تقريبا وتتصل البركة بالأودية التى تجرى خلال فصل الشتاء والقادمة من الشرق (٦٦) .

وفـى الأماكـن التى تكون المياه الجوفية فيها غير بعيدة عن سطح الأرض ، ويكـون من السهولة حفر الآبار فيها ، كان العرب فى شبه الجزيرة يحفرون آبارا فى

بيوتهم وفى أملاكهم للشرب ولرى مزروعاتهم إن كانت عذبة ، وللتنظيف والاستعمال . ويستعان بالخدم وبالسقايين فى جلب مياه الشرب من الآبار العذبة والعيون والنهيرات ، كما حفروا الآبار فى الحصون . وقد كانت فى حصن الهجوم بئر عظيمة عميقة ، عذبة الماء ، وقد بنى الحصن من حجارة ضخمة ذكر أن طول الحجر منها سبع أذرع فى عرض ثلاثة أذرع وأقام أصحابه عليه الأسوار والأبراج ، وقد فتح فى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم (٦٧) .

وقد وصلت الينا نصوص عديدة فى حفر آبار أو فى شرائها وبيعها وفى تعميرها وإصلاحها ، وهى ثروة ورأس مال كبير فى جزيرة العرب ، تحيى الأرض وتدبتها وتغنى الناس وتميتهم ، ولذلك كانوا إذا حفروا بئرا أو إذا ظهرت لهم مياه عذبة غزيرة يقدمون إلى آلهتهم الشكر والحمد والنذور . وقد أقامت الآبار الكبيرة مدنا ، وأماتت مدنا بسبب نضوب مياهها وجفافها .

وللأهمية المذكورة للآبار فى حياة العرب ، كثرت فى لغتهم المصطلحات الخاصة بها ، من أسماء لأنواع الآبار ومن مصطلحات للحفر ولوسائل الحفر ، ومن ألفاظ للمواد التى تستعمل فى البئر وفى استخراج الماء منها (٦٨) .

زراعة المحاصيل النباتية :

لابد من حرث الأرض وتنقيتها من الشوائب الضارة بالزرع ، ومن تليينها وذلك قبل الشروع بالبذر أو الغرس . وقد كان بعضهم يحرق الأدغال والأعشاب وما يجده على الأرض المراد زرعها من زوائد وأوساخ وذلك للتخلص منه للاستفادة منها فى تقوية التربة وزيادة نمائها ، ثم يقومون بحراثتها فيندمج رمادها فى التربة ، ويصير جزءا منها ، وقد يقتلون أصول الزرع السابق وما يكون قد نبت على الأرض من نبات غريب مؤذ للزرع قبل حراثة التربة ، فإذا تم ذلك ونظفت التربة سقوها بالماء ليكون من السهل حرث الأرض وتعزيقها ، وربما لا يسقونها بل يحرثونها مباشرة ، وذلك بالنسبة للأرض التى تسقى بماء المطر ، حيث لا يتوفر الماء الجارى ، أو ماء الآبار (٦٩) . ومتى تمت الحراثة وقلبت التربة ، تهيأت للزرع

ونظمت وفقا لنوع الزرع الذى سيكون فيها على هيئة ألواح طويلة دقيقة ، أو مربعات تتخللها السواقى والقنى ، أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك فى الزرع والغرس . ويقوم الزارع نفسه فى العادة بحرث أرضه وإصلاحها وتمهيدها للزرع ، وقد يقوم بالحراثة أشخاص مقابل أجر يدفع لهم .

ومن المصطلحات المستعملة فى الحراثة ، العزق ، وهو تشقيق الأرض بفاس ، والأداة : المعزق والمعزقة [٧٠] . والكور الحفر ، ومنها كوت الأرض كورا أى حفرتها [٧١] والحيوانات المستخدمة فى الحراثة هى الثيران والحمير والخيل والجمال ، وذلك بحسب كثرة هذه الحيوانات وقلتها ، ويستعمل فى الحرث حيوان واحد حينا وحيوانان حينا آخر ، وقد وصلت إلينا بعض النصوص الجاهلية محفورا فيها صور حيوانات تحرث ، تجر المحراث ويسوقها الفلاح [٧٢] .

ولتقوية الأرض وإعادة الحيوية إليها ، استخدم الجاهليون التسميد وبالسماد تعاد إلى الأرض بعض قوتها ، وينمو الزرع ، وقد استعملوا فى ذلك جملة وسائل كما يفعل المزارعون فى الزمن الحاضر فى بعض المناطق المتأخرة ، فاستعملوا فضلات الإنسان والحيوانات كما استعملوا الزبل [٧٣] .

ولم يكن من الممكن بالنسبة لأيام الجاهلية زرع مساحات واسعة بالحبوب أو الخضر والنخيل وبقية الشجر لصغر حجوم المياه وقلة المطر وعدم كفايته لإرواء الزرع منذ بذر بذوره حتى حصاده وللظروف السياسية والاقتصادية الاجتماعية التى كانت مهيمنة على مجتمع ذلك العهد من عدم وجود حكومات قوية كبرى ترعى الأمن وتحمى حقوق المزارع وزرعه من العبث به ، ثم تشجيعه وتقديم المعونة له ، لذلك كان من الصعب ظهور مزارع كبيرة تنتج غلات عظيمة تعرض للاستهلاك المحلى وللتصدير ، ولم يكن فى وسع أحد إنشاء مثل هذه المزارع إلا إذا كان متمكنا ذا مال ونفوذ ، وصاحب عشيرة قوية تحمى حقه ممن يريد الاعتداء عليه [٧٤] .

وقد نشرت مجلة الطبيعة Nature التى تصدر فى لندن فى العدد رقم ٥٧٥٩ المجلد ٢٨ (مايو ١٩٨٠) مقالا هاما عن (الأحافير النباتية فى المملكة العربية

السعودية) ، ويعطى هذا المقال لأول مرة فكرة عن تجمعات الأحافير النباتية فى الجزء الأوسط من المملكة العربية السعودية بمنطقة عنيزة ، كما يبحث المقال فى الصلة أو القرابة بين هذه الأحافير النباتية بالمملكة والمجموعات النباتية الأخرى من مناطق أخرى من العالم . ولعل الأهمية الجغرافية لهذه الأحافير النباتية التى تنتمى للعصر البرمور كربونى تكمن فى المدى الذى يمكن أن يساعد فى تحديد الجزء الشمالى من قارة جوندوانا القديمة . وهذا يدل على أن شبه الجزيرة العربية كانت تقع إلى الجنوب من بحر التيش القديم (وهو البحر الذى كان يفصل بين قارة يوراسيا ، قارتى أوربا وآسيا حاليا) وقارة جوندوانا ، كما يدل على أن شبه الجزيرة العربية كانت مجاورة أو مماسة للنباتات التابعة لكتلة قارة جوندوانا Gondwanaland إلى الجنوب والغرب منها (٧٥) .

لقد جمعت أكثر من ١٠٠٠ عينة من مكتشف صخرى على الطريق بين مدينتى عنيزة وبريدة بالقرب من مدينة عنيزة والنباتات محفوظة كانطباعات فى شريط من الطفل الليمونيتى الذى يتراوح سمكه بين ٥-٢٠ سنتميترا فى داخل تتابع طبقات الطفل والرمل المتبادلة قريبا قاعدة متكون الخف .

إن متكون الخف نسب من قبل بالتقريب إلى العصر البرمى الأعلى بواسطة الأحافير الحيوانية ، وقد جمعت بعض الأحافير الحيوانية من متكون الخف الأسفل ما بين ٤٠ إلى ٧٢ مترا فوق قاعدة متكون الخف وكذلك من متكون الخف الأعلى من حوالى ٢ إلى ٢٨ مترا تحت قمة المتكون (٧٦) .

وأكثر النباتات وفرة فى التجمع النباتى من عنيزة (وتوجد فى ثلثى العينات الصخرية تقريبا) هى أنواع من نبات Pecopteris وتحمل بعض العينات الحوافظ البوغية Sporangia وهذه تدل على وجود صلة قرابة مع المعقد النباتى Dizeagotheca- Acitheca Complex ، كما توجد أوراق سرخسية مشابهة تعرف - (Pecoptreis hemiteloides P. unitus) معروفة بشكل واسع فى المجموعات النباتية للعصر الكربونى المتأخر والعصر البرمى فى أوربا وشرق آسيا

European & Cathaysian Floras ، لكــن هذه النبات توجد أيضا مع ما يسمى بالمجموعــة النباتية المختلطة التابعة لقارة Gondwanaland ، وعلى سبيل المثال تلك الموجودة فى منطقة وانكى Wanki بروديسيا .

وبــنفس كــثرة نبات Pecoptris ، توجد أوراق على هيئة الحزام وعرضها حوالــى ٥ســم ، ولها تعرق موازى ودقيق تشبه نبات Cordaites Principlias ، ويوجــد هذا النوع من النبات بشكل واسع فى النصف الشمالى من الكرة الأرضية فى العصــر الكــربونى المــتأخر والعصر البرمى المبكر . أما ثالث الأنواع النباتية فى الوفــرة فهــو نــبات Annularia Stellata ، وهــذا النوع ذو التورق من النوع Calamite قــد وجد بشكل واسع فى شمال أمريكا وأوربا وآسيا والأوراق هنا ذات مســافات متســاوية فــى ثنياتها على النقيض من جنس Lobatannularia المميز لمــنطقة Gathaysia والــتى لهــا فضــل ممــيز لأوراق كل لفة فى مجموعتين متقابلتين (٧٧) .

ومــن أهم المحاصيل التى عرفتها بلاد العرب ، الحبوب . ويطلق علماء اللغة علــى الحنطة والشعير لفظة (الحب) (٧٨) ، وهو عماد الخبز فى جزيرة العرب إلى الآن . والحــنطة من أهم المواد الضرورية التى يتاجر بها وهى (قمح) أيضا ، وقد تكلم بها أهل الحجاز ، وذكر (ابن المجاور) اسم موضع يقال له (بحرى) ذكر أنه اشــتهر بــزرع الحنطة ، وأن سكانه يزرعونها مرتين فى السنة ، فى كل ستة أشهر مرة واشتهرت الطائف بزراعة نوع من الحنطة جيدة (٧٩) .

والشــعير ، أرخــص من الحنطة ، ولذلك كثر استعماله فى الأكل ، فمنه كان خــبز أكــثر الناس ولا زال خبز أهل القرى وبعض الأعراب . وقد كان يهود المدينة يــتاجرون به وبدقيق الشعير : يبيعونه فى مواطنهم ، وفى الأسواق ، ولا سيما سوق (بنى قينقاع) .

وقــد تعود الناس استعمال حبوب أخرى بدلا من الحنطة والشعير والذرة وذلك فــى ســنى الفاقة والعوز . وبعض هذه الحبوب هو من الحبوب التى تنبت بالطبيعة .

ومــن جملــة هــذه الحبوب (الطهف) ، قال أبو حنيفة (عشب ضعيف) . دقاق لا ورق له . وقــال إعرابى من ربيعة (له حب يؤكل فى المجهدة) ضار دقيق . وقال أبــو حنيفة : وهو مرعى وله ثمرة حمراء إذا اجتمعت فى مكان واحد ظهرت حمرتها وإذا تفرقــت خفيــت . وقال الفراء : هو شئ يختبز . وقال ابن الإعرابى : الطهف : الــذرة وهى شجرة كأنها الطريفة لا تنبت إلا فى السهل وشعاب الجبال ، وقال غيره : هــى عشبة حجازية ذات غصنة وورق كأنه ورق القصب ، ومنبتها الصحراء ومتون الأرض وثمرتها حب فى أكمام (٨٠) .

والعدس ، هو حبة سوداء ، إذا أجدبوا طحنوها وأكلوها . وقيل هو ضرب من الحنطة يكون بناحية اليمن . وقيل هو طعام أهل صنعاء ويقال أنه العدس (٨١)

والعدس معروف عندهم أيضا ويقال له (العلس) و (البلس) (٨٢) .

والحمــص معــروف عند العرب ، وهو برى ، أى وحشى ، ينبت من نفسه ، وبســتانى ، أى ينبــت بزرع الإنسان . وقد علفوا به فحول الذواب والجمال . . وهو نــافخ مليــن مدر ، يزيد فى المنى والشهوة والدم . قال بقراط : فى الحمص جوهران يفارقانــه بالطــبخ ، أحدهما ملح يلين بالطبع والآخر حلو يدر البول وهو يجلو النمش ويحســن اللــون ويــنفع من الأورام الحارة ودهنه ينفع القوباء ، ودقيقه ينفع القروح الخبيــثة ونقــيعه ينفع أوجاع الضرس وورم اللثة ، وهو يصفى الصوت ومقو للبدن والذكر (٨٣) .

وأمــا (القطر) ، فهو ضرب من الكمأة ، وقد ذكر علماء اللغة أنه قتال (٨٤) . وقد أخذوا هذه الفكرة من وجود فصائل سامة منه إلا أن منه ما هو غير سام .

والبطــيخ مــن المــزروعات المعــروفة فى بلاد العرب (٨٥) ، وعرف أيضا بــ (الخربز) وهى لفظة معربة من أصل فارس هو (خربوذة) .

وقد وردت لفظة (الخربز) من العراق بواسطة التجار العرب أو التجار الفرس الذين كانوا يتاجرون مع الحجاز أو بواسطة الرقيق المستورد من هناك والذى استخدم فى الزراعة فى هذه الديار [٨٦] .

والحنظل ، معروف جدا عند العرب ، وهم يداوون به ، ويعالجون به أمراضا كثيرة ، ولا زال الأعراب يقيمون له وزنا كبيرا فى طبهم ويأكلونه حبا أيضا .

ومـــن فصـــائل النـــبات عند الجاهليين ، النبات الشائك ، أى ذو الشوك والقتاد شـــجر صـــلبى له شوكة كالإبر ينبت بنجد وتهامة ، وفى المثل (من دون ذلك خرط القـــتاد) . قـــد ذكر أن الإبل لا تأكل القتاد إلا فى عام جدب فيجئ الرجل ويضرم فيه الـــنار حتى يحرق شوكه ثم يرعيه إبله ، ويسمى ذلك القتيد . قال الشاعر يصف إبله وسقيه للناس ألبانها فى سنة المحل :

وترى لها زمن القتاد على الثرى رخما ولا يحيا لها فصل

قولـــه : وترى لها رخما على الثرى : يعنى الرغوة شبهها فى بياضها بالرخم وهـــو طـــير ، أبـــيض وقولـــه : لا يحـــيا لها فصل لأنه يؤثر بألبانها أضيافه وينحر فصلانها ولا يقتنيها إلى أن يحيا الناس [٨٧] .

وقـــد وجد النخل فى كل مكان من جزيرة العرب فيه ماء ولو كان قليلا . وهو شـــجر صـــبور يصـــبر على العطش طويلا ، ومن أجل ذلك صار مثل الجمل رمزا للصـــحراء ، ولم ينفر العربى من زراعة أشجار الفواكه والخضر بوجه خاص . وقد تخصص بزراعة النخل المستقرون بالطبع فى بعض المناطق [٨٨] .

والنخيل هى مثل الجمال ثروة ورأس مال تدر على صاحبه ربحا وافرا ، ومن كـــان له نخـــل وافـــر ، كـــان غنيا ثريا ، وقد ربح أصحاب النخيل أرباحا طائلة من اشـــتغالهم بـــزراعة النخـــيل ، فالـــتمر هـــو مادة ضرورية يعيش عليها أكثر العرب ويـــتأدمون بها يأكلون بدلا من اللحم . وكان الأعراب يأتون أهل الريف بما عندهم من

وبـــر ومـــن محاصيل البوادى ليبادلوه بالتمر وبالدقيق ربما يحتاجون إليه فى حياتهم البدوية من حاجات ضرورية (٨٩) .

و(الأبـــر) تلقـــيح النخل ، وكانوا يلقحون النخلة بدس شمراخ الفحال فى وعاء الطلع(٩٠).

ويؤكـــل التمر رطبا ، ويؤكل يابسا جافا حيث يسمى فى هذه الحالة (القسب) ويســتعمل القســب بعــد انتهاء موسم التمر وذهابه ، وهو أكثر تمر الأعراب لسهولة المحافظـــة عليه من التلف . وقد لجأ الجاهليون إلى طريقة كبس التمر للمحافظة عليه زمـــنا طويـــلا ، ولسهولة نقله والاتجار به من سكان إلى مكان . ومن طرقهم فى ذلك أنهـــم كانوا ينزعون نواة التمر ، ثم يكنزونه فى قرب وظروف من الخوص ويقولون لذلك : التلقيف (٩١) .

والكرم شجر العنب ، والعنب ، ثم الكرم ، زرع فى مواضع كثيرة من جزيرة العرب فى البساتين وفى الحدائق . وفى الأماكن التى توافرت فيها المياه والجو الطيب المناســـب لزراعته مثل اليمن التى اشتهرت به ، والطائف وهو أجناس عديدة ، بعضه أصـــيل : أى مـــن جزيـــرة العرب ومن تربتها ، وبعضه مستورد ، استورد من بلاد الشـــام بصـــورة خاصـــة من أماكن أخرى انغرس فى بلاد العرب ونبت نباتا حسنا ، وأجاد إجادة طيبة ، جعل زراع الكروم يكثرون من زراعته (٩٢) .

وكـــانوا ينتجون من فائض الأعناب الزبيب والنبيذ ومنه الغربيب الذى كان يعد مـــن أجـــود العنـــب وأرقه وأشده سوادا ، ومن أنواع العنب الأخرى ، الجرشى وهو منســـوب إلـــى جرش فى اليمن ، والعنب التبوكى نسبة على تبوك ، والعنب الكلافى نســـبة إلـــى كلاف وهى بلدة فى اليمن ، والعنب التربي نسبة إلى تربة ، وأما أعناب الطـــائف فمـــنها الحمـــنان والكشـــمش والرمادى ، وكان أسود أغبر ، وكانت زراعة الكـــروم تـــدر أرباحا طائلة وبخاصة بعد عصرها فى " موهتين " ، وهى المعصرة ، وتحويلهـــا إلى نبيذ ،وكانت المعاصر تتألف من حجارة قطعت من الصخر ، ويوضع

العنب في ثقب بالحجر الأعلى وبإدارته يجرى العصير إلى الموضع الذى يسيل منه إلى وعاء آخر يودع فيه العصير(٩٣) .

والتين من الأشجار المعروفة في الحجاز وفى اليمن ، وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب وأجناسه كثيرة ، برية وريفية ، وسهلية ، وجبلية ، ويكون أخضر اللون ، أو أصفر وأحمر وأسود ، وهو كثير بالسراة مباح يؤكل رطبا ويزبب ويدخر (٩٤) .

ومن أنواعه الجلداسى وهو تين أسود ليس بالحالج ، والقلارى ، وهو أبيض متوسط ،والطيار وهو كبير الحجم ، والفيلحانى أيضا ، وهناك تين وحشى وكان ينبت فى الجبال وشواطئ الأودية ، وهو أصغر تين أنواع التين (٩٥) .

وقد عنى أهل الجاهلية بتحسين وبتنويع وبتطعيم أشجارهم المثمرة وكان منهم مثل أهل الطائف واليمن من استورد الشجر المثمر الجيد من الخارج من بلاد الشام ومن أفريقية والهند ومن المواضع التى اشتهرت بصنف جيد من أصناف الشجر من جزيرة العرب ، وبذلك نوعوا ثمرهم وحسنوا أصناف شجرهم ، ويظهر أثر استيراد الشجر من خارج جزيرة العرب ومن الأسماء الأعجمية التى عرفت بها فى الجاهلية والتى تتحدث عن المكان الذى استوردت منه (٩٦) .

وقد ذكر أهل الأخبار أسماء عدد من الأشجار نبتت ونمت نموا طبيعيا ، منها ما نبت على الجبال والمرتفعات ، ومنها ما نبت فى البوادى فى التهائم فهى من الأشجار الوحشية التى لم تزرعها يد إنسان ، بعض منها مثمر يستفاد من ثمره ، وبعض منها مثمر ، غير أنه لا يمكن الاستفادة من ثمره ولا ينتفع به إنسان أو حيوان ، وبعض منه عقيم غير مثمر .

وقد صنع أهل الجاهلية من النباتات البرية والأشجار الجبلية ، الفحم ، وهم لا يزالون يصنعونه من هذه المواد وذلك بإشعالها أولا ثم بإطفاء جمرها للاستفادة من الفحم الحاصل من ذلك فى أغراض شتى ويحمله أصحابه إلى أهل المدر لبيعه لهم ، أو لمقايضته مع الباعة بمواد أخرى يحتاجون إليها . وقد أدى الإسراف فى ذلك وفى

قلع الأشجار البرية النابتة بالطبيعة دون التعويض عنها بزراعة غيرها فى مكانها إلى تحول الأراضى الشجراء إلى أراض جرداء (٩٧) .

وقد استعمل العرب بعض أجزاء بعض النباتات أداة فى الكتابة ، وأشهر أنواع النبات التى صلحت لهذا : العسيب ، وجمعه عسب ، بضمتين ، وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها ، فمن الشعر الجاهلى الذى ورد فيه ذكر العسيب قول لبيد يصف كاتبا (٩٨) :

متعود لحن يعيد بكفه   قلما على عُسُب ذبُلن وبان

وقول امرئ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجانى   كخط الزبور فى العسب اليمانى

وقريب من العسيب : الكرنافة ، وجمعها : كرانيف ، وهى أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع . وقد ورد أن الوحى كان يكتب على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم على العسب والكرانيف .

وكان هناك " القلم " ، وهو فى الجاهلية ، كما تصفه النصوص مصنوع من القصب يُقط ويقلم أو يُبرى ، ثم يغمس فى مداد الدواة ويكتب به ، وفى ذلك كتب عبد الله بن حنش (٩٩) " رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البراء " ، وأكبر الظن أنهم كانوا يستخدمون ضربا آخر من الأقلام يكتبون به – دون حبر – حين تلجئهم الحاجة إلى أن يسجلوا بعض شؤونهم فى عجلة من أمرهم ، ودون أن يعدوا للأمر عدته ، فالشاعر الجاهلى الذى كان يحتضر فلم يجد وسيلة للكتابة إلا أن يتخذ من رحل قاتله صحيفة يكتب عليها ما كان يريد ، والصحابى الذى أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته فى مؤخر رحله ، والتابعى الذى كان يسمع الحديث من بعض الصحابة فى الليل فيكتبه فى واسطة رحله حتى يصبح فينسخه . . . .هؤلاء جميعا لم يكونوا معدين للكتابة أمرها ، ولم يكونوا متخذين لها أسبابها ، وليس مما يقبله عقل أن يكونوا فى مثل أحوالهم تلك يحملون معهم قصبهم المقطوط المبرى ودُويهم الملأى

بـــالمداد ، وإنمــا كانوا – فيما يرجح الأسد – يكتبون بمادة تترك لونها أو أثرها على الرحل ، ولعلها مادة طباشيرية ، أو فحمية أو رصاصية.

ويفهــم من بعض النصوص الجاهلية أن الزراعة كانت تتعرض لآفات زراعية خطــيرة تقضى على المزروعات فى بعض الأحيان ، وطالما وجدنا أصحابها يسألون الآلهــة وقاية مزروعاتهم وحمايتها وإنزال البركة عليها ومنحهم غلات وافرة كثيرة . وقــد يكون من بين هذه الآفات : الحشرات والجراد وانحباس المطر . ومن طرق هذه الحمايـــة فى نظرهم تسمية الزرع باسم إله ليكون فى حمايته ورعايته ، وقد يخصص نصــيب مــنه لذلــك الإله فى مقابل حمايته ورعايته ، وقد يخصص نصيب منه لذلك الإله فى مقابل حمايته لها (١٠٠) .

وإذا أخذنا منطقة تتوافر بها أشياء كثيرة مما ذكرنا ، سنجد مدينة يثرب ، فمن أهم مزروعاتها النخيل : يغرسونه فى مغارس كبيرة ، وقد يحوطونها فتكون حدائق . وكانت أرض المدينة صالحة لزراعة النخل حتى ليقال أن ودية (١٠١) النخيل تثمر بعد عــام مــن زرعهــا ، وعلــى إنتاج النخيل كان اعتماد السكان ، فكان من التمر جل طعــامهم ، كمــا كــان به التعامل بينهم فتدفع منه الأجور وتسدد الديون ، كما كانوا ينــتفعون بكــل شــئ فــى النخلة : يأكلون جمارها ويستخدمون جريدها فى سقوف مــنازلهم ، ويعملون من خوصها القفف ويستخدمون جذوعها أعمدة لبيوتهم وحمالات لســقوفها ، ويســتخدمون الشــوك والكرانــيف للوقود ، كما كانوا يرضخون النوى بالمراضخ حتى ينكسر فيكون علفا للإبل ، فالنخلة من أكرم الأشجار عليهم ، حتى لقد شبه النبى (ﷺ) المؤمن بالنخلة ، كل ما فيه خير (١٠٢) .

وتمر المدينة متعدد الأنواع ، منه الجيد ، ومنه غير الجيد ، ومن أشهر أنواعه الصــيحانى وابن طاب ، وعذق زيد ، والعجوة ، والصرفان وهو نوع من التمر أحمر هــو أوزن التمر كله ، والجنيب وهو أجود أنواع التمر . وقد كان ليهود بنى النضير نوع فاخر من التمر يقال له اللوز أصفر شديد الصفرة ترى النواة فيه من اللحمة .

والشـــعيرة هو الغلة بعد التمر ، وكانوا يزرعونه فى حقول ولكنهم عادة كانوا يزرعونه تحت النخيل ، وكان عليه اعتمادهم بعد التمر .

وإلـــى جانـــب هاتيـــن الغلتين الرئيسيتين ، كان يزرع قليل من القمح والكرم وبعـــض أنـــواع الفاكهة الأخرى من رمان وموز وليمون وبطيخ وقاوون ، كما كانت تـــزرع بعـــض الخضـــروات والـــبقول كالقـــرع واللوبـــيا والســـاق والبصل الثوم والقثاء (١٠٣) .

أثر الحياة الزراعية على المعاملات الاجتماعية والحياة الثقافية :

كانـــت للأحوال التى عليها حياة الزرع والنبات والإرواء أثارها بطبيعة الحال علـــى شخصـــية العـــربى الجاهلى وفى نظرته إلى نفسه وإلى الحياة ، وعلى تكييف معاملاته مع الغير كذلك ، كما يتضح لنا مما يأتى :

- فعلـــى الـــرغم من قلة المناطق الزراعية وغلبة الحياة الصحراوية فإننا نجد عـــرب الجاهلية قد توجهوا فى عباداتهم إلى أشياء مما ينتمى إلى عالم الزراعة ، فقد عـــبد بعضـــهم الشجر كما عبد الصنم ، وهم فى هذا وذلك يعتقدون أن قوة إلهية حلت فـــى المعـــبود ، كما اعتقد قدماء المصريون فى العجل إيليس ، فكان الإله عشتر يعبد فـــى الأصـــل لا بوصـــفه إله الزهرة بل بوصفه إلها أرضيا ، إله سقى النخيل وجنى الثمار والخصب والنتاج ، وهذا ظاهر مما ورد فى النقوش المعينية من ألقاب ونعوت كـــان يوصـــف بهـــا ، فمن ذلك أنه كان يدعى واهب الماء ، وجانى الثمار ، وجامع الحصـــاد ، فهو من أقدم الآلهة التى عبدت فى جزيرة العرب ، وقد انتقلت عبادته إلى جميع أنحاء العالم السامى (١٠٤) .

ثـــم عبد الإله عشتر فى صورة مؤنث على أنه إلهة لا إله ، فكانت عشتر إلهة الخصـــب والنـــتاج ممـــثلة فـــى الـــنخل والماء ، وقد وردت بهذا المعنى فى النقوش المعينـــية ، وكانت تدعى فى البابلية منتجة الخضرة والنبات . وقد قرنت بعبادة النخل والأشـــجار عـــند الســـاميين منذ قديم الزمان حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم

مصنوع من خشب كما ورد مرارا فى التوراة ، وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان ، وكان الساميون يعتقدون أن هذه الآلهة وما شاكلها تسكن جذع الأشجار ، وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام ، وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ظهور الإسلام . وقد سميت فى شمال الجزيرة بأسماء أخرى .

منها العزى ، وكانت شجرة بوادى نخلة إلى الشرق من مكة عندها وثن تعبده غطفان ، وسدنتها من بنى صرمة بن مرة ، وكان الذى اتخذها ظالم بن أسعد وبنى لها بيتا ولها منحر ، ينحرون فيه هداياهم ، يقال له الغبغب ، وكانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبائح ، كما عبدتها غنى وباهلة وخزاعة وجميع مضر وبنو كنانة وغطفان من القبائل العربية ٠ وكان العرب إذا فرغوا من حجهم وطوافهم حول الكعبة لم يحلوا حتى يأتوا عزى ، فيطوفون بها ويعكفون عندها يوما (١٠٥) .

وقد اعتقدوا أن العزى شيطانة " تأتى ثلاث سمرات (١٠٦) ببطن نخلة فلما افتتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث بخالد بن الوليد فقال له : إيت ببطن نخلة فإنك تجد ثلاث سمرات ، فاعضد الأولى فاتاها فعضدها ، فلما جاء إليه قال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال : عضد الثانية ، فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال : هل رأيت شيئا ؟ قال لا ، قال : فأعضد الثالثة ، فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها ، تصرف بأنيابها وخلفها دبية بن حرمى الشيبانى – وكان سادنها – فلما نظر إلى خالد قال :

أعزاء شدى شدة لا تكذبى   على خالد ألقى الخمار وشمرى

فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانك ، إنى رأيت الله قد أهانك ، ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هى حممة ، ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ، أما أنها لن تعبد بعد اليوم (١٠٧) .

ونحن لا نورد هذه القصة إيمانا بتفاصيلها ، وإنما نذكرها لبيان الأثر الذى كان للعزى فى نفوس العرب .

وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى والثالثة الأخرى ، فإنها الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترجى (١٠٨) .

ومنها ذات أنواط ، وهى سمرات من الطلح الشائك لا يظل ولا يثمر ولا ترعاه الإبل ، إلا إذا عضها الجوع لأنها تسقم منه ، لكن سلطانها ظل إلى ما بعد الإسلام يدل على ذلك قول المعرى فى رسالة الغفران . وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية ، وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله ! اجعل لنا ذات أنوات كما لهم ذات أنواط . وقد ذكرها المعرى فى شعره للدلالة على أثر الحظ فى الحياة (١٠٩) :

والجد يدرك أقواما فيرفعهم ... وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا

وشرفت ذات أنواط قبائلها ... ولم تباين على علاتها الشجرا

وقال ابن الأثير فى سبب تسميتها : أنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها .

– كذلك أثرت هذه الحياة على أخلاقهم ، فقد عاش العربى فى الصحراء وهو فى جهاد مستمر وكفاح طويل مرير محافظة منه على حياته فليس بالصحراء من معالم الحياة إلا النذر اليسير ، وليس بها أنهار جارية أو وديان خصبة مسرعة ، أو حدائق غناء ، إلا فى أمكنة قليلة تعتمد على الغيث ، وبعض العيون المتفجرة ، ولذلك اشتد حرصه على الماء وسعى فى سبيله سعيا متواصلا لا هوادة فيه ، واقتضى ذلك منه رحيلا دائما فى فيافى واسعة ، يواجه مخاطرها ، فى كل ثانية ، ويستقبل متغيرات الطبيعة أينما سار :

ومن يك مثلى ذا عيال ومفترا ... منى المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ... ومبلغ نفسى عذرها مثل منجح

فامـــتزج بهذه الطبيعة والصحراء امتزاجا تاما ، وصار قبله جلدا لا يرهب ولا يفـــزع ، وصارت عنده مناعة ضد الضيم والتبلد ، لأنه إن كف عن السعى فى سبيل الماء الذى هو قوام حياته ، هلك ، لذلك عظمت قوى الكفاح فى العربى ، كما عظمت ثمـــرات هـــذه القـــوى فى نفسه ، فصار من أصح أهل الأرض بنية ، وأوفرهم قوة ، وأروعهـــم قامة وأبينهم عافية ، وأكثرهم احتمالا لما يطاق من الشدائد والمشقات ، وقد جعلـــه هـــذا الصبر الذى فرضته عليه الصحراى يعدل العشرات من الناس من حيث الطاقة البشرية (١١٠) .

وإذا تقصينا حياة العربى منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه ، وأنه شب وكـــبر وهـــى تتمشى فى دمه ، وكيف لا وقد ربى فى بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام ، وحســـن الـــبلاء فـــى حماية الذمار والأخذ بالثأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ؟ وطالمـــا فزع طفلا على قعقعة السلاح ، وصيحات المقاتلين ، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع ، والأبطال فى ميدان الوغى تتنازع ، ثـــم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك ، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب (١١١) .

- والشـــجاعة تتقضـــى أن يكون الفتى ذا عزيمة وحزم ، لا يتردد ولا يتلوم ، وإلا قضـــى علـــيه تردده وتقاعسه ، فهو يناجز فرسانا شجعانا ، فلابد أن يكون قوى الجـــنان نافذ الرأى ذا بصيرة فى المآزق ، وإذا ضاقت عليه السبل ولم يجد من الموت بـــدا ، رأى العار أن يفر ويولى ظهره للمحن والشدائد ، بل عليه أن يقتحم غمراتها ، وأن يعمـــد إلى حيله ودهائه أو إلى سيفه يفرج به الكربة ويزيل الغمة ، فلعل فى ذلك نجاته لأنه لا يدرى إذا هرب كم بقى له من العمر (١١٢) .

- والكـــرم مـــن السجايا التى نبتت فى الصحراء ، ونمت نموا طبيعيا واحتلت مكانـــة ســـامية فـــى نفـــوس العرب ، وهو من الصفات التى ترشح صاحبها للسيادة والرئاســـة ، وذلـــك لأن الحياة فى الصحراء – كما أشرنا إلى ذلك كثيرا – فيها شبح الفاقة والجوع فى بعض أنحاء الجزيرة العربية ، فإذا لم يتقدم من عنده فضل من غنى

وزاد لإنقاذ حياة سكان تلك البقاع المجدبة هلكوا جوعا . فعظم العرب الكرم لأنهم جميعا معرضون لمثل تلك المحن التى تصيبهم بين آونة وأخرى والتى لا يجدون لها حيلة إلا بتقدم ذوى اليسار والجود لإغاثتهم ، فكأنهم بتعظيمهم الكرم وتقديمهم الأسخياء للرياسة إنما يدافعون عن كيانهم وحياتهم [١١٣] .

وقد كان للعرب فى كرمهم أمور تدعو إلى الإكبار فضلا عن دلالتها على تأصل تلك السجية فيهم تدل على صدق تطبيقهم لها ٠ من ذلك أن أحلى ما يكون الكرم عندهم فى ليالى الشتاء الباردة وقد ألم بالناس الجدب والقحط والجفاف ، وكادت كلابهم تتحجر من شدة البرد القارص ٠٠٠فى هذه الأحوال الصعبة يفتخر العرب بإطعامهم الطعام ودعوة الناس إليه ، وتعميم الدعوة إلى الطعام ليحضره كل من له إليه حاجة ، فلا يعد الواحد منهم كريما إذا اختص بدعوته ناسا دون آخرين [١١٤] .

وكان من علائم كرمهم رغبة كرمائهم عن الطعام ، وكراهيتهم له إذا لم يشاركهم فيه طاعم من الضيفان أو من الجيران .

ومن سمات كرمهم أن يُبرزوا قدورهم أمام بيوتهم ليلا ليهتدى بها الضيفان ، فيأووا إليهم ، قال حاتم :

لا تسترى قدرى إذا ما طبختها   علىّ إذن ما تطبخين حرام

وقول آخر [١١٥] :

ولست بآكل وحدى حميتى   وجار البيت ليس له حميت

ولقد عبرت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائى فى ردها على من لامها على كرمها عن هذا المعنى ، وهو أنها ذاقت الجوع مرة ، فآلت على نفسها ألا ترد بعد اليوم جائعا فقالت :

لعمرك قد ما عضنى الجوع عضة   فآليت ألا أمنع الدهر جائعا

فقولا لهذا اللائمى اليوم اعفنى   وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا

– وكانوا لا يقدرون شيئا كما يقدرون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعدا أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه

عهـــدا أن ينصروه ، وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حرب ، وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء فى مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد (١١٦) .

ولـــيس هـــناك خلـــة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثـــة الملهـــوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم وهو أهل حرب وجلاد ؟

- وكان من أثر البيئة الطبيعية أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة فى أدبهـــم ، بحيـــث تنتشـــر الملل فى نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثوا فيها كثـــيرا مـــن الحيوية ، وما من شك فى أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التى لم تكن تعـــرف الثـــبات والاستقرار ، فهم دائما راحلون وراء الغيث ومساقط الكلأ ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا الحيوان وصفوه متحركا لا واقفا جامدا (١١٧) .

وهـــذه الحركة فى حياتهم التى تعنى عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالى تعنى عدم الـــتوقف عـــند شئ وإطالة النظر فيه هى التى جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانـــت مـــن أهـــم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلا عند المعنى الذى يلـــم بـــه ، بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر ، فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهـــو كذلـــك فـــى معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى فى خفة وسرعة شديدة ، ومن ثم غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به مـــن هـــدوء وســـكون ، ولعـــل هذا ما جعل البيت فى قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفســـها ، وتـــتألف القصـــيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التى يكتفى فيها كل بيت غالبا بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادرا(١١٨) .

- هـــذا وقد كثرت الحروب بين العرب فى سبيل العيش ، فاختلفوا على المرعى والمـــاء وزادت حرارة الصحراء فى حدة انفعالهم واستجابتهم لدواعى القتال ، ولذلك تـــراهم مغيرين أو مغارا عليهم ، وفى الغارات تتعرض نعمهم للنهب ، فيفقدون بذلك المـــورد الـــذى يقـــوم بـــأودهم وينكبون فى مقومات حياتهم ، فإن لم يسرع الكرماء لإصلاح حالهم تعرضوا للهلاك المبين .

وحتى تستطيع القبيلة مواجهة خصومها فى حروبها كانت تدخل فى حلف ، فظهرت " اتحادات الأحلاف " ، ويظن أن هذه الأحلاف لعبت دورا كبيرا فى تكوين القبائل إذ كانت العشائر الضعيفة تنضم إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان ، ومن هنا كتب أحد الباحثين " فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس فى الملأ والكلأ ، والتماسهم المعاش فى المتسع ، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم فى ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم " (١١٩) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة فى حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ، ويردون كيدهم عنها فى نحورهم ، وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائما أحلافا تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى ، وقبائل لم تدخل فى أحلاف ، ولذلك سميت " جمرات العرب " لما كان فيها من شجعان ويكفونها فى الحروب ، على أن هذا كثيرا ما كان يؤول بها إلى أن تنهك فى المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لخشونة مسها !

– وكان للبيئة العربية أثرها كذلك على " الأمثال " السائرة ، وعلى سبيل المثال ، ففى بيئات الحجاز الزراعية كخيبر والمدينة حيث تنتشر النخيل نجد أن الحجازيين قد اتخذوا من " التمر " مادة للأمثال يعالجون بها أطرافا من شئونهم المعاشية وحياتهم الاجتماعية ، فقالوا " كمستبضع التمر إلى خيبر " ، ويقال للدلالة على خطأ هذا الفعل ، فخيبر مصدر التمر ، والذى يجلب إليها التمر مخطئ ، أعظم الخطأ ، مقضى على تجارته بالبوار والكساد ، وهذا من بديهيات التجارة الشائعة ، والشئ يجب أن يوضع فى موضعه ، ويوجه لمن هو فى حاجة إليه (١٢٠) .

وقالوا " كل خاطب على لسانه تمرة " ، وفى التمرة حلاوة والخاطب عادة يحلو لسانه حتى يحوز الرضا ، ويفوز بحبة قلبه ، وهو يضرب للذى يلين كلامه إذا طلب حاجة .

ومـــن الأمـــثال ذات المغــزى " رب زارع لنفســـه حاصد سواه " ، قاله عامر بن الظـــرب ، وذلـــك أنه خطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : يا صعصعة ، إنك جئت تشترى منى كبدى وأرحم ولدى عندى ، منعتك أو بعتك ، النكاح خير من الأيمة والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح بعد أبا ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، ثـــم أقبل على قومه فقال : يا معشر عدوان ، أخرجت من بين أظهركم كريمتكم على غـــير رغـــبة عـــنكم ، ولكن من خط له شئ جاءه ، رب زارع لنفسه حاصد سواه ، ولولا قسم الحظوظ على غير الحدود ما أدرك الآخر من الأول شيئا يعيش به ، ولكن الـــذى أرسل الحيا أنبت المرعى ، ثم قسمه أكلا ، لكل فم بقلة ومن الماء جرعة إنكم تـــرون ولا تعلمون ، لن يرى ما أصف لكم إلا كل ذى قلب واع ولكل شئ راع ولكل رزق ساع (١٢١) .

- كذلـــك شـــكلت المـــوارد الزراعية قوام الحياة التجارية لدى العرب ، وكان الجاهلـــيون مثل غيرهم من الشعوب السامية نشطون فى عالم التجارة ، والتجارة تكاد تكـــون الحرفة الوحيدة عند العرب التى لم ينظر العربى إليها وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص ، بل اعتبرت عندهم من أشرف الحرف قدرا ومنزلة .

ولعـــل ما جعل للموارد الزراعية قيمة فى الحياة التجارية فى ذلك العصر قيام التجارة على المقايضة ، وهى المعارضة ، إذا عارض التاجر أى شخص متاعا بمتاع آخـــر ، وبـــادل سلعة بسلعة أخرى ، وهى الطريقة القديمة فى الاتجار قبل أن يتعامل بالذهـــب والفضـــة وزنا فى تقييم قيم الأشياء ، وقبل أن تعرف النقود التى ولدت من التعامل بالذهب والفضة .

وقـــد ورثـــت سبأ من معين مركزها التجارى ، وتزعمت الحركة التجارية إلى القـــرن الـــثانى قبل الميلاد ، وكانت هى السوق الكبرى للمتاجر ، وكان السبئيون هم حلقـــة الاتصـــال بيـــن الهـــند والحبشـــة وشرقى إفريقية ، وبين شمالى آسيا وشمالى إفريقية ، وكانت عمان الإقليم الشرقى لهذه المتاجر (١٢٢) .

وقـد استعانوا بالفينيقيين زمنا طويلا فى بيع سلعهم ، إذ كانت لغتهم متقاربة ، وكـان الفينيقيون هم حلقة الاتصال بين السبئيين وجنوبى أوربا ، وطالما تنافس العرب والبابليون فى الاتجار مع الهند .

واستطاع السبئيون أن يبسطوا نفوذهم على اليمن كلها ، وحضرموت وما جاورها ، ومكن لهم هذا النفوذ من السيطرة على منافذ التجارة الهندية القادمة إلى الموانى ، وعلى المراكز المشرفة على طرق القوافل .

ولسنا نشك فى أن اليمنيين أثروا من مركزهم التجارى ، ومن خصوبة أرضهم ، فعاشوا فى سعة لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما كبراؤهم الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتنعم والافتنان فى الأكل .

وقد أشار المؤرخ (بلينيوس) Pliny إلى أن المعينيين كانوا يملكون أرضا غنية خصبة يكثر فيها النخيل والأشجار ، وكان لهم قطعان كثيرة من الماشية ، وأن السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب والأراضى المزروعة المرواة ، وما ينتجونه من العسل وشمع العسل كما كانوا ينتجون العطور (١٢٣) .

وكان (الطيب) من أهم المواد التى تاجر بها العرب الجنوبيون ، تاجروا بتصديره إلى خارج العربية الجنوبية إلى بلاد الشام ومصر والعراق وتاجروا به فى الداخل أى فى العربية الجنوبية ، وفى مواضع أخرى من جزيرة العرب ، ويستخرج الطيب من أنواع متعددة من الأشجار ، ويجلب بعضه من الخارج من الهند وأفريقية ، ويصدر إلى مصر وأسواق بلاد الشام والعراق .

والبخور من المواد الثمينة ذات السعر العالى بالنسبة لتجارة ذلك الوقت ، والبخور وما يتبخر به ، وثياب مبخرة مطيبة ، وقد كانوا يحرقون البخور فى المباخر ، ويبخرون به المعابد والأصنام ، ومنه (القسط) الذى كان منه نوع عربى ، وورد (قسط ظفار) نسبة إلى (ظفار) قرب مرباط بالعربية الجنوبية . وقد نسب إليها هذا (العود) رغم أنه لا ينبت بها إذ كان يأتى من الهند .

وقد اهتم باحثون أجانب بتجارة البخور من جنوب الجزيرة على الشمال وخاصة على الرومان ، ويمكن تسجيل بعض الملاحظات على ما ورد فى هذا الشأن [١٢٤] :

١- أن تجارة البخور كانت ترتبط فى أذهان سكان العالم القديم ، فى حوض البحر الأبيض المتوسط بالعرب لأنهم – فيما يبدو – كانوا وحدهم الذين يحملون أصنافه إلى شواطئ تلك البحر .

٢- أن أهمية تلك التجارة وعلاقتها بازدهار حياة العرب جعلتهم يسنون القوانين الكفيلة بحمايتها من العبث والتخريب ، بل والتهريب ، وإنهم اعتمدوا أيضا على المعتقدات الدينية لضمان تلك الحياة حيثما كان تطبيق القانون مستحيلا .

٣- أن العرب كانوا حريصين على أن يكتموا أسرار تلك التجارة المربحة التى كانوا يحتكرونها ، وأنهم إذا أحرجوا بالسؤال عنها تعمدوا الغموض والإبهام فى إجاباتهم ، ولعلهم أيضا تعمدوا أن يحيطوها بالأساطير على سبيل الدعاية.

والعنبر من المواد الهامة ، وللإخباريين آراء فى أصل العنبر وأجوده ما يجاب من شحر عمان [١٢٥] .

وكان (المر) من المواد الثمينة الغالية فى قائمة المنتجات العربية التى تباع داخل البلاد العربية وخارجها وقد أقبل العبرانيون والمصريون على استيراده وشرائه لاستعماله فى الأغراض الدينية ، فاستعمل فى المعابد وفى التحنيط .

و(الكندر) ضرب من العلك ، وقيل هو اللبان ، وقد عولج به [١٢٦] ، واللبان مشهور فى العربية الجنوبية ، وهو من حاصل الهند والعربية الجنوبية وأفريقيا وهو ضرب من الصمغ ، وذكر أنه الكندر ، وأنه يصنع من عصير جملة أنواع من الشجيرات ، ويستخرج من عصير يستنبط بشق قشر الشجرة وتجفيف العصير ، وقد استخدم فى المعابد ، وأشير فى سفرى (اشعيا) و (أرمياء) إلى أن العبرانيين كانوا يستوردونه من (شبا) أى من أرض (سبأ) وأشهره من شحر عمان ، وأحسنه ما

يجمــع من موضع تجمعه قبل سقوطه على الأرض ، أو تلوثه بمادة غريبة قد تتساقط عليه [١٢٧] .

وقــد ســاعد علــى هــذا الرواج فى تبادل السلع ، قيام عدد من الأسواق الكبرى الشــهيرة ، وكانــت هذه الأسواق تستمر طوال العام ينتقلون من بعضها إلى بعض ، ومن أشهر أسواقهم العربية فى الحجاز[١٢٨] :

١- ســوق عكاظ ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، وهى أعظم أســواقهم ، وقد اتخذت سوقا بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وظلت قائمة فى الإســلام حتى نهاها الخوارج عام ١٢٩ هــ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف .
٢- ســوق مجــنة : ومجــنة موضع يمر بالظهران أسفل مكة على أميال منها ، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذى القعدة .
٣- ســوق ذى المجاز بمنى ، خلف عرفة ، وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ، ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع .
٤- دومــة الجندل ، وتنعقد فى ربيع الأول ، ويحدد البغدادى ميعاد انعقادها فيجعله اليوم الخامس عشر من ربيع الأول من كل عام .
٥- مكة ، وهى سوق دائمة .
٦- سوق خيبر ، وتعقد بعد أيام الحج كما روى الألوسى .
٧- سوق منى .

فضلا عن أسواق أخرى بالبحرين وعدن وغيرهما .

وأبــرز مــا كانت تقوم به هذه الأسواق أنها لم تقتصر على البعد الاقتصادى وحده مــن حيــث تبادل السلع التجارية ، بل كانت كذلك ميدانا فسيحا لتبادل الآراء وعرض الأفكــار ، التشــاور فــى المشكلات ومجالا للمفاخرات ، والمنافرات والمحاورات ، ومعرضا لإلقاء الشعر والمباهاة بالفصاحة .

ويعتــبر " سوق عكاظ " ، وهى السوق التجارية الكبرى لعامة أهل الجزيرة ، يحمل إليها من كل بلد تجارته وصناعته كما يحمل إليها أدبه ، فإليها يجلب الخمر من

هجـر والعـراق وغزة وبصرى ، والسمن من البوادى ، ويرد إليها من اليمن البرود الموشـاة والأدم ، وفـيها الغالـية وأنواع الطيب وأدوات السلاح ، ويباع فيها الحرير والوكـاء والحذاء والمسير والعدنى يحملها إليها التجار من معادنها ، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها ، اعتادت قريش أن تحمله فى قفولها إلى مكة . وكانت تجارة فـارس يصـل منها أشياء إلى عكاظ ، فان النعمان ابن المنذر ملك الحيرة كان يبعث إلـى سـوق عكـاظ كـل عام لطيمة (العير المحملة بمسك وغيره) فى جوار رجل شـريف من أشراف العرب يحميها له من كل معتد حتى تصل سالمة إلى عكاظ فتباع ويشـترى بثمـنها ما يحتاج إليه من أدم (جلود) الطائف وسائر المتاع فى عكاز من حريـر وعصـب مسير ، وبيعت فيها حلة ذى يزن ، فاشتراها حكيم بن حزام ليهديها إلى الرسول (ﷺ) (١٢٩) .

وإذا كان من شأن البيئة الصحراوية أن تفرض نظاما اجتماعيا يتمثل فى القبيلة ، وافـتقاد وجـود حكومـة ودولة ، فقد كان هذا من شأنه أن يرسخ من أهمية الثأر ، حيـث لا حكومـة ولا محاكم ولا سلطة تحول بين الموتور والواتر ، وقد كان هناك شيوخ القبائل ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التنفيذية التى بها يقتصون من الجانى ، لأن القبيلة لم يكن لها قانون جنائى ، فليس أمام الموتور إلا أن ينتقم من واتره (١٣٠) .

وكـان الثأر واجبا على أقرب الناس للقتيل ، وكانت عشيرة الجانى لا تخذله أو تسـلمه إلـى الموتور ، بل كانت تحميه وتؤازره ، فإذا ما قتل جدت عشيرته لتثأر له أيضا ، وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء وتطاولت .

ومن آثار الظروف التى أحاطت بالحياة العربية القديمة أيضا ، ما عرف " بوأد البـنات " ، خوفا من أسرهن فى الحروب وما يجره هذا على أهلهن من عار وانكسار ، أو مـن شـدة الفقر والحاجة ، وهو ما اشار إليه الله عز وجل فى قوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا) الإسراء / ٣١ وإن كـان يمكـن ملاحظـة أن الآية القرآنية لم تشر إلى البنات وحدهن ، بل عممت الـنهى علـى النوعين : الذكور والإناث ، مما يفيد أن الوأد فى الغالب لم يكن قاصرا على البنات .

لكـــن هذا لا ينفى عدم ترحيب بإنجاب البنات ، وقد هجر أبو حمزة الضبى امرأته لأنها ولدت بنتا ، فمر بخبائها يوما وإذا هى ترقصها وتقول :

ما لأبى حمزة لا يأتينا   يظل فى البيت الذى يلينا

غضبان ألا نلد البنينا   تالله ما ذلك فى أيديـــنا

وإنما نأخذ ما أعطينا   ونحن كالأرض لزارعينا

تنبت ما قد زرعوه فينا

ومـــن الواضح استعارة التشبيه فى دور المرأة فى الإنجاب بما يحدث فى عملية الزراعة ، وتشبيه المرأة بالأرض ، تنبت ما يزرع فيها ٠

– وأخـــيرا فقد تشكلت فى ضوء الظروف الخاصة بالأرض : بمائها وزروعها علاقـــات إنـــتاج خاصة ، فقد عرف نظام " الحمى " الذى يمكن أن يعد بمثابة البدايات الأولـــى لـــتحويل الملكـــية المشاعة (الجماعية) إلى ملكية فردية خاصة باسم رئيس العشـــيرة أو القبيلة ولفائدته الشخصية سواء كان ذلك تملكا أو تملك حيازة ، لكن واقع الاســـتغلال يـــبقى ثابـــتا فى كلتا الحالتين . والحمى نسبة إلى فعل (حمى) ، وحمى الشـــئ حمـــيا : منعه ودفع عنه ، وقال الأصمعى : يقال حمى فلان الأرض ، يحميها حمـــى لا يقـــرب ، أمـــا الليـــث فقـــال : الحمى موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى (١٣١) .

ويـــروى يـــاقوت عـــن الأصـــمعى أن الحمى حميان : حمى ضرية ، وحمى الزبدة . أما ياقوت نفسه فيذكر أنه وجد أحماء أخرى مثل : حمى فيد – حمى النير – حمـــى ذى الشرى – حمى النقيع ، فأما حمى (ضرية) فهو أشهرها وأسيرها ذكرا ، وهو كان حمى كليب ابن وائل فيما زعم له بعض أهل بادية طئ . قال : ذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابرنا عن كابر وهو سهل الموطئ كثير الخلة ، وأرضه صلبة ، ونـــباته مســـمنة ، وبه كانت ترعى إبل الملوك. وحمى الربذة أيضا أراده رسول الله (ﷺ) بقولـــه : لـــنعم المـــنزل ، الحمى ، لولا كثرة حياته وهو غليظ الموطئ كثير الحموض ، تطول عنه الأوبار وتنفتق الخواصر وبرهل اللحم (١٣٢) ...الخ .

ويبين الشافعى الطريقة التى كانت متبعة فى الجاهلية فى تحديد الحمى الخاص فيقول : " كان الرجل العزيز من العرب إذا انتجع بلدا مخصبا ، أوفى بكلب على جبل أن كان ، أو نشز إن لم يكن جبل ، ثم استعواه ووقف من يسمع منتهى صوته ، فحيث بلـغ صـوته مـن كـل ناحية [١٣٣] ، أحماه لنفسه . وفى الشعر المنسوب للعباس بن مرداس تنويه عن نفس المعنى ، إذ يقول [١٣٤] .

كـان يبغيـها كليـب بظلمـه   من العز حتى طاح وهو فتيلها

على وائل إذ يترك الكلب نابحا   وإذ يمنع الإقناء منها حلولـها

وقـد علـق المستشـرق لوكجـارد Lokkegaard بتعليقات طريفة عن هذه الطـريقة فـى تحديـد الحمـى ، ويرى بأن ما أورده الشافعى إنما كان تعميما لحالة فـردية [١٣٥] . وفـى الواقـع لم يقتصر الحمى على المجتمعات البدوية وشبه البدوية فقط ، بل عرفته المجتمعات الحضرية أيضا مثل اليمن .

وتذكـر المصـادر معاملات زراعية كان المزارعون فى الجاهلية يمارسونها وهـى عـبارة عـن عقود ومواثيق كانوا يأخذونها على أنفسهم بالقيام بأعمال زراعية معينة مثل :

المحاقلة – المخابرة – المزارعة – المساقاة .

والمحاقلة ، اكتراء الأرض بالحنطة أو الذهب أو شئ آخر .

والمـزارعة علـى نصيب معلوم يتفق عليه بالثلث أو الربع أو أقل من ذلك أو أكثر ، أو على الأوسق من التمر والشعير أو على الدينار والدرهم [١٣٦] .

وقـد اختلفـت الآراء فى المراد بـ (المخابرة) ، لكن التدقيق فى هذه الآراء يجعلنا نتنبه إلى وجود شئ واحد وهو أن المخابرة ، المزارعة على نصيب معلوم مما يزرع فى الأرض . أما تثبيت الأنصبة فلا دخل له بالتعريف [١٣٧] .

و(المزارعة) ، المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها ويكون البذر من مالكها [١٣٨] ، فان كان من العامل ، فهى مخابرة .

وكمـــا مــــارس أصـــحاب الأمـــلاك والمـــزارعون الجاهليون طريقة المحاقلة والمـــزارعة ، مارســـوا (المســـاقات) كذلك ، وتكون بالاتفاق بين طرفين على قيام أحدهـــم بتوجيه المال إلى صاحب أرض أو ملتزم لها أو غير ذلك ، وهو محتاج إلى ماء مقابل تعهد يقدمه الطرف الثانى إلى صاحب الماء بعوض ، مثل جزء من حاصل أو عيـــن أو ما شابه ، ذلك مقابل ذلك الماء وذكر أن المساقاة ، أن يستعمل رجلا فى نخـــيل أو كرم ليقوم بإصلاحها مقابل أن يكون له سهم معلوم مما تغله ، وأهل العراق يسمونها معاملة (١٣٩) .

وتضـــطر الظـــروف الاقتصادية المزارعين إلى بيع الثمار وخضر البقول قبل بـــدء صـــلاحها ، وقـــد يفعلـــون ذلك تخلصا من معاملات جنى الثمر وحراسته من اللصـــوص ، وحمله إلى الأسواق ، وأمثال ذلك من معاملات تحتاج إلى مال وجهد ، ويقـــال لذلـــك (المخاضرة) ، وقد عرفت بأنها بيع الثمار قبل بدو صلاحها ، سميت بذلـــك لأن المبايعين تبايعا شيئا أخضر بينهما مأخوذ من الخضرة ويدخل فى ذلك بيع الرطاب والبقول وأشباهها (١٤٠) .

الهوامش

١- محمد صالح سمك : أمير الشعر فى العصر القديم ، امرؤ القيس ، القاهرة ، نهضة مصر ، ١٩٢٩ ، ص ٣٥.
٢- المرجع السابق ، ص ٣٧.
٣- جواد على : المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧١ حـ٧ ، ص ٦ .
٤- حسين عطوان : بيئات الشعر الجاهلى ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٩٣ ، ص ٢٥
٥- المرجع السابق ، ص ٩٥.
٦- المرجع السابق ، ص٢٦ .
٧- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، حـ١ ، ص ٩٧ .
٨- أحمد إبراهيم الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ، دار الفكر العربى ، ط٢ ، د.ت ، ص ١٠ .
٩- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩ ، م٤ ، ص ٣٣٨ .
١٠- سبأ /١٨ .
١١- معجم البلدان ، جـ٤ ، ص ٣٣٨ .
١٢- الفجر - ٦،٩ ، الأعراف - ٣٣-٧٩ ، الشعراء - ١٤١، ١٥٩ .
١٣- المفصل ، حـ١ ، ص ١١٥ .
١٤- مكة والمدينة ، ص ١١ .
١٥- المفصل ، حـ٧ ، ص١٣٠ .
١٦- المرجع السابق ، ص ١٣١ .
١٧- عبد الله عبد الجبار ، ومحمد عبد المنعم خفاجى : قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٨٠ ، ص ٢٩.
١٨- المرجع السابق ، ص ٣٠.

١٩- حمود العودى : المدخل الاجتماعى فى دراسة التاريخ والتراث العربى القديم ، دراسة عن المجتمع اليمنى . عالم الكتب . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٣، ٣٤.
٢٠- محمد على نصر الله : تطور نظام ملكية الأراضى فى الإسلام ، دار الحداثة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٢٨ .
٢١- المرجع السابق . هامش ص ٢٩ .
٢٢- حمود العودى ، ص ٤٩ .
٢٣- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٣٧ .
٢٤- المرجع السابق ، ص ٣٩ .
٢٥- الجـــاحظ : البخلاء . تحقيق محمد على الزغبى ، مكتبة العرفان ، بيروت ، حـ ٢ ، ص ١١١ .
٢٦- بـــلا شير : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة ابراهيم الكيلانى ، دمشق ، ١٩٥٦ ، حـ١ ، ص ٣٣ .
٢٧- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٤٢ .
٢٨- تاج العروس ، حـ٣ ، ص ٤٥٤ .
٢٩- المرجع السابق : حـ٥ ، ص ١٠ .
٣٠- المفصل ، حـ٧ ، ص ١٣٦ .
٣١- تاج العروس ، حـ١٠ ، ص ٢٥٥ ، حـ٨ ، ص ٤٧ .
٣٢- أنـــور أبو سويلم : المطر فى الشعر الجاهلى ، بيروت ، دار الجيل ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٢-١٦.
٣٣- بيئات الشعر الجاهلى ، ص ١١٣
٣٤- المفصل ، حـ٧ ، ص ١٥٦، ١٥٧ .
٣٥- لسان العرب ، حـ٢ ، ص ٨٢٨ .
٣٦- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٧ .
٣٧- قصة الأدب فى الحجاز ، ص ٢٨.
٣٨- المرجع السابق : ص ٨ .

٣٩- معجم البلدان : حـ٤ ، ص ٣٢٠-٣٢١.

٤٠- المرجع السابق : حـ٣ ، ص ٢٢٨ .

٤١- مكة والمدينة : ص ٨ .

٤٢- المفصل : حـ٧ ، ص ١٦٠.

٤٣- حمود العودى : ص ٤١ .

٤٤- حسن محمد الشماع : سد مأرب ، من عجائب العالم القديم ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد (٣٧) رجب ١٤٠٠هـ - مايو ايونية ١٩٨٠ ، ص ٩١ وما بعدها .

٤٥- أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، طـ٢ ، ص ١٢٢.

٤٦- ناجي معروف : أصالة الحضارة العربية ، دار الثقافة العربية بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٨٧.

٤٧- حسن الشماع : ص ٩٥ .

٤٨- ابراهيم يوسف الشتلة : سد مأرب واحد من أضخم سدود الجزيرة العربية وأشهرها ، المجلة العربية ، الرياض ، العدد ٦٣ ، ربيع الثانى ١٤٠٣ هـ - فبراير ١٩٨٣ ، ص ٣٥ .

٤٩- المرجع السابق .

٥٠- الشماع ، ص ٩٦ .

٥١- ويندل فيابس : كنوز مدينة بلقيس ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦١ ص ٢٤٣ .

٥٢- الشماع : ص ٩٦ .

٥٣- سبأ /آية ١٦ .

٥٤- حمود العودى : ص ٢٤ .

٥٥- المرجع السابق : ص ٢٥ .

٥٦- معجم البلدان : ط٤ ، ص ١٣٨ .

٥٧- علـــى العتوم : قضايا الشعر الجاهلى ، عمان ، مكتبة الرسالة الحديثة ، ١٩٨٢ ، ص ٣٦٥ .

٥٨- المرجع السابق ، ص ٣٦٦ .

٥٩- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٥٦ .

٦٠- المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

٦١- المرجع السابق ، ص ٣٥٨ .

٦٢- المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

٦٣- المفصل ، حـ٧ ، ص ١٨٠ .

٦٤- على العتوم ، ص ٣٦٨.

٦٥- معجم البلدان ، حـ١، ص ١١١ .

٦٦- عبد الرحمن حميدة : بصرى ، عنقود العنب ، مجلة الفيصل ، الرياض ، العدد ٣٥ ، جمادى الأولى ١٤٠٠هـ-مارس / أبريل ١٩٨٠ ، ص ٤٢ .

٦٧- المفصل ، حـ٧ ، ص ١٨٢ .

٦٨- المرجع السابق : ص ١٨٣ .

٦٩- المرجع السابق : ص ٤٥ .

٧٠- تاج العروس : حـ٧ ، ص ١٢ .

٧١- المرجع السابق : حـ٣ ، ص ٥٣١ .

٧٢- المفصل : حـ٧ ، ص ٤٨ .

٧٣- المرجع السابق : ص ٥٠ .

٧٤- المرجع السابق : ص ٢٨ .

٧٥- أحمـــد عـــبد القادر المهندس وعبد الملك العبد الله الخيال : نباتات حقب الحياة القديمـــة من المملكة العربية السعودية ، الفيصل ، الرياض ، العدد ٤٩ ، رجب ١٤٠١ هـــ السنة الخامسة ، مايو ١٩٨١ ، ص ١٢٠ .

٧٦- المرجع السابق : ص ١٢٢ .

٧٧- المرجع السابق : ص ١٢٣ .

٧٨-تاج العروس : حـ١ ، ص ١٩٨ .

٧٩- المفصل ،حـ٧ ، ص ٥٨ .

٨٠- تاج العروس ، حـ٦ ، ص ١٨٦ .

٨١- المرجع السابق ، حـ٤ ، ص ١٩٥ .

٨٢- المرجع السابق ، حـ٤ ، ص ٣٨٣ .

٨٣- المرجع السابق ، حـ٤ ،ص ١٨٦ .

٨٤- المرجع السابق : حـ٣ ، ص ٤٧ .

٨٥- المرجع السابق : حـ٢ ، ص ٢٥٣ .

٨٦- المفصل، حـ٧ ، ص ٦٤ .

٨٧- تاج العروس ، حـ٢ ، ص ٤٥٨ .

٨٨- المفصل ، حـ٧، ص ٦٦ .

٨٩- المرجع السابق : حـ٧ ، ص ٦٨ .

٩٠- تاج العروس : حـ٢، ص ٢١٧ .

٩١- المرجع السابق : حـ٦ ، ص ٢٢٧ .

٩٢- المفصل ، حـ٧ ، ص ٧٣ .

٩٣- محمــود عــرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، دار الثقافة العربية ، ١٩٩٨ ، ص٢٩٢ .

٩٤- تاج العروس ، حـ٩ ، ص ١٥٤ .

٩٥- العرب قبل الإسلام ، ص ٢٩٣ .

٩٦- المفصل ، حـ٧ ، ص ٧٨ .

٩٧- المرجع السابق ، حـ٧ ، ص ٩٣ .

٩٨- ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ط٥ ، ص ٨٢ .

٩٩- المرجع السابق ، ص ٩٨ .

١٠٠- المرجع السابق : نفس الصفحة .

١٠١- الودى : فسيل النخل وصغاره ، لسان العرب ، حـ٢ ، ص ٤٨٠ .
١٠٢- الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٥٧ .
١٠٣- المرجع السابق : ص ٣٥٨ .
١٠٤- أحمـد محمد الحوفى : الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٤٢٨ .
١٠٥- العرب قبل الإسلام ، ص ٢٢٨ .
١٠٦- السمره : بضم الميم . من شجر الطلع والجمع سمر وسمرات وقيل من الشجر صغار الورق قصار الشوك . لسان العرب ، حـ٣ ، ص ٢٠٩٢ .
١٠٧- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٤٢٩ .
١٠٨- المرجع السابق : ص ٤٣٠ .
١٠٩- المرجع السابق : ص ٤٣١ .
١١٠- عمـر الدسـوقى : الفتوة عند العرب ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦ .
١١١- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٣٣١ .
١١٢- الفتوة عند العرب : ص ٣١ .
١١٣- المرجع السابق : ص ٥٩ .
١١٤- عبد الله جبريل مقداد : القيم العربية الأصيلة من شعرنا القديم ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٦ ، ص ١٢ .
١١٥- المرجع السابق ، ص ١٣ .
١١٦- شـوقى ضيف : العصر الجاهلى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٢ ، ط١٠ ، ص ٦٩.
١١٧- المرجع السابق ، ص ٢٢٣.
١١٨- المرجع السابق ، ص ٢٢٤.
١١٩- المرجع السابق ، ص ٥٨.
١٢٠- قصة الأدب فى الحجاز ، ص ٢٧٤.

١٢١- المرجع السابق ، ص ٢٨٨

١٢٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٩١.

١٢٣- المفصل ، حـ٧ ، ص ٢٣٥ .

١٢٤- محمد عبد القادر باقفيه : تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥ ، ١٧٤.

١٢٥- شحر : ساحل البحر بين عمان وعدن .

١٢٦- تاج العروس ، حـ٣ ، ص ٥٢٩ .

١٢٧- المفصل ، حـ٧ ، ص ٢٤٠ .

١٢٨- قصة الأدب فى الحجاز ، ص ١٧٤.

١٢٩- نادى الطائف الأدبى : سوق عكاظ فى التاريخ والأدب ، إعداد لجنة الآثار التاريخية مطابع الزايدى بالطائف ، د.ت ، ط١ ، ص ٧٠ .

١٣٠- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ، ص ٢٨٣.

١٣١- لسان العرب : حـ٢ ، ص ١٠١٤ .

١٣٢- معجم البلدان : حـ٢ ، ٣٠٨ .

١٣٣- لسان العرب ، حـ٢ ،ص ١٠١٤ .

١٣٤- الماوردى : الأحكام السلطانية ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٨٣ ، ص ١٦١ .

١٣٥- تطور نظام ملكية الأراضى ، ص ٤٦ .

١٣٦- تاج العروس ، حـ٧ ، ص ٢٨١ .

١٣٧- المفصل ، حـ٧ ، ص ٢١٧ .

١٣٨- تاج العروس : حـ٥ ، ص ٣٦٨ .

١٣٩- المفصل ، حـ٧ ، ص ٢١٩ .

١٤٠- تاج العروس ، حـ٣ ، ص ١٨٠ .